عنوان المداخلة:

وسائل رعاية الوازع الدّيني كمقصد قرآني وأثر اعتباره في فقه الحضارة الإنسانية.

–المحور الثّاني: المحور العلمي.

–الاسم: نبيل **–اللّقب: موفق**

–معهد العلوم الإسلاميّة جامعة الوادي –الجزائر–

–البريد الإلكتروني: mouffok-nabil@univ-eloued.dz

–الهاتف: 06 74 93 38 46

وسائل رعاية الوازع الدّيني كمقصد قرآني وأثر اعتباره في فقه الحضارة الإنسانية.

مقدّمة:

إنّ صلة المسلمين بالقرآن الكريم صلة عظيمة ومقدّسة، لأنّه النّصّ الإلهيّ الذي يوجّه حياتهم ويحرّك مكنونات نفوسهم، ويؤسّس حضارتهم، ويبني عمرانهم، وعلى المسلمين أن يستكشفوا سنن هذه المقاصد ومعانيها ومناهجها، وعليهم أن يدركوا مدى تأثيرها في الحياة من تأسيس وإصلاح وتغيير وتصحيح للحركة البشريّة في الحياة.

ولا وجود لأيّ تغيير نحو الأحسن في المجال الاجتماعي والحضاري إلاّ بعد التّمسّك بالقيم العلميّة والخلقيّة والدّينيّة، لأنّ الحوادث التّاريخيّة والتّجارب الإنسانيّة علّمتنا أنّ سبب تخبّط الشّعوب في بحر الأزمات الخانقة هو الانفصام الكامل بين المعرفة العلميّة والمعرفة الدّينيّة، وعدم الإقرار بوجود التّكامل التّام بينهما، حتّى غدا العلم في حدود معيّنة لا يصل إلى دائرة صنع القرار الذي يؤثّر في المنظومة الاجتماعيّة والحضاريّة للشّعوب، فأصبح هناك انفصال إن لم نقل حالة من العداوة بين السّيف والقلم، والحكم والعلم، والسّلطان والقرآن، ونتج عن ذلك وجود سلطة سياسيّة بعيدة عن مفهوم الآليّة الحيويّة لدفع الازدهار الاجتماعي والحضاري، وباتت ركيزتها السّلطة والقوّة فقط، في حين عاد العلماء إلى ممارسة دورهم خارج دوائر الحكم، وظلّت الحياة الاجتماعيّة في تجاذب بين الدّوائر التّنفيذيّة والدّوائر العلميّة.

وقد توالت جهود العلماء من أجل إيجاد حلّ لإقحام النّظريّات العلميّة، والمقاصد القرآنية وتفعيلها في الحياة الاجتماعيّة للنّاس حتّى تدفعهم إلى التّطلّع الحضاري الإنساني الرّشيد.

ولا شكّ أنّ من بين أهمّ أسس التّغيير الاجتماعي والحضاري ما هو متأصّل في نفوس المتطلّعين إلى ذلك من وازع ديني، لأنّ من مقوّمات الحضارة الفكرة الدّينيّة، كما يقول المفكّر الجزائري مالك بن نبي: "الحضارة لا تنبعث –كما هو ملاحظ– إلاّ بالعقيدة الدّينيّة، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الدّيني الذي بعثها..."[1]

ولذلك فقد انتبه كثير من مفكّري الإسلام في القديم والحديث كالعلاّمة ابن خلدون، والعلاّمة ابن عاشور، والمفكّر محمّد إقبال، والمفكّر إسماعيل الفاروقي، والمفكّر مالك بن نبيّ، وفيلسوف الأخلاق محمّد عبد الله دراز–وغيرهم ممّن ناقش مشكلة الحضارة وشخّص داءها وسعى إلى إيجاد مسارات تنويرية للخروج من نفق التّخلّف والتّبعية– إلى أنّ من مقاصد القرآن العليا التي تمثّل منطلقاً أساسياً للإقلاع الحضاري والبناء العمراني مقصد الوازع الدّيني، الذي يعتبر من أرقى مظاهر الحضارة، فالإنسان إذا

[1]–بن نبي مالك ، المسلم في عالم الاقتصاد، بيروت،دار الشروق، 1974، د.ت، ص 66.

اكتفى بوازعه الدّيني يأمره وينهاه، ولا يحتاج إلى الوازع الاجتماعي ولا إلى الوازع القانوني السّلطاني فقد بدأ في وضع قدمه على سكّة التّحضّر لأنّ عمله مبني على القناعة الكاملة والحرّيّة الشّاملة.

ومن أهمّ الأهداف التي يسعى البحث إلى تحقيقها:

-لفت النّظر إلى ضرورة رعايةمقصديّة الوازع الدّيني، وبيان أهمّ أسسه وعلاقتها بالنّهوض الحضاري والبناء العمران.

-تبصرة روّاد الفكر والمهمومين بمشكلات الإقلاع الحضاري والنّهوض العمراني بسبب الدّاء المخيّم على الأمّة الذي يعيقها عن التّقدّم والازدهار، وهو السّعي وراء فلسفة الحضارة الغربية بدون النّظر إلى الفروقات الجوهرية بين فلسفة الحضارة الإسلامية وفلسفة الحضارة الغربية، فعند أرباب هذه الأخيرة الدّين أفيون الشّعوب لأنّ الدّين عندهم مجرّد شعائر لا روح فيها، ونصوصهم الدّينية التي يستندون إليها لا تلد قوانين ولا نظاماً ولا تشريعاً، أمّا الحضارة الإسلامية فإنّ فلسفتها قائمة على الرّجوع إلى النّصّ الإلهي وهو القرآن الكريم وما فيه من مقاصد عليا تدعو إلى أحكام تشريعية وأخلاقية، وتؤسّس لنظام عام يحكم النّاس، ويحقق مصالحهم.

-محاولة ربط قيم الحضارة الإنسانية والعمران البشري بالفكرة الدّينية وهو ما نسمّيه مقصد الوازع الدّيني المؤسّس على الشّريعة والأخلاق والعقائد وأنّها أداة للتّعرّف على المسخّرات الكونية ومنهج واضح وكامل في كيفية الاستفادة منها وتوظيفها في الحياة البشرية.

-لفت النّظر إلى العلاقة القائمة بين مقصد الوازع القرآني وترشيد العمل ومضاعفة الإنتاج ووفرته، كونهما من عوامل الازدهار الحضاري والبناء العمراني.

والإشكال الذي تتأسّس عليه هذه الدّراسة هو: ما مدى مقصدية الوازع الدّيني في القرآن الكريم؟ وما هو دوره في تعزيز واستثمار القيم الحضارية وتفعيل سنن العمران البشري؟

وللإجابة عن هذا الإشكال عمدت إلى مناقشة محاور أربعةرئيسية وهي كالتّالي:

أوّلاً: مفهوم الوازع الدّيني وإثبات مقصديّته من القرآن الكريم.

ثانياً: أسس الوازع الدّيني وأثرها في النّهوض الحضاري.

ثالثاً: مقصد الوازع الدّيني ومكوّنات الحضارة والعمران.

رابعاً: دور مقصد الوازع الدّيني في الحركة الحضارية والعمرانية.

أوّلاً: مفهوم الوازع الدّيني وإثبات مقصديّته من القرآن الكريم.

1-تعريف الوازع الدّيني.

أ – تعريف الوازع لغةً .

تكاد تتّفق معاجم اللّغة في تعريف الوازع على أنّ له معنيين :

-الكفّ عن الشّيء، أوكفّ النّفس عن هواها، ووزعته: كفته، واتَّزع هوأي :كفَّ[1].

قال الشّاعر: إذا لم أزع نفسي عن الجهل والصِّبا * * * لينفعها علمي فقد ضرَّها جهلي[2].

ومنه قول الحسن البصري-لما ولي القضاء-:"لابدّ للنّاس من وزعة"، ويقصد بذلك ما تعنيه كلمة الوازع في اللّغة، وهو الكف، إذ الوزعة هم الأعوان الذين يكفّونه عن الشَّر والفساد، وفي رواية:"من وازع"، أي من سلطان يكفّهم ويزع بعضهم بعض[3].

وفي قول عمر بن الخطاب –رضي الله عنه- :"من يزع السلطان أكثر ممن يزع القرآن"، أي: من يكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثر ممَّن يكفه مخافة القرآن [4].

وقال أبو عبيد-في حديث أبي بكر- رضي الله عنه- وقد شكا إليه بعض عماله- فقال: "أأنا أقيد من وزعه الله"، الوزعة جمع الوازع، والوازع هو من يكفّ النّاس ويمنعهم عن الشّر....فكأنّ أبا بكر إنما أراد: إنّي لا أقيّد من الولاة الذين يزعون النّاس عن محارم الله تعالى، يعني: إذا كان الفعل منهم بوجه الحكم والعدل لا بوجه الجور[5].

---

[1]- ابن منظور، محمّد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط1، د.ت، ج8، ص390، مادة (وزع)، والأزهري، أبو منصور، محمّد بن أحمد، معجم تهذيب اللّغة، تحقيق: رياض زكي قاسم، بيروت، دار المعرفة، سنة 2001 ، ط1، ص3884، مادة (وزع)، والجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد، الصّحاح، تحقيق: إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتب العلميّة، سنة1999، ط1،ج3،ص595، مادة، (وزع).

[2]- الفراهيدي، أبو عبد الرّحمان، الخليل بن أحمد، كتاب العين، بيروت، دار إحياء التّراث العربي، سنة 2001، ط1، ص1047.

[3]- ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج8، ص390، والأزهري، معجم تهذيب اللّغة، مرجع سابق، ص3884.

[4]- ابن الأثير، المبارك بن محمّد بن عبد الكريم الجزري، النّهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزّاوي، محمود محمّد الطّناجي، بيروت، المكتبة العلميّة، 1979، ج5، ص180.

[5]- الهروي، القاسم بن سلاّم، غريب الحديث، تحقيق: محمّد عبد المعيد خان، بيروت، دار الكتاب العربي، سنة1396هـ ، ط1،ج3، ص228.

وفي حديث أبي بكر –رضي الله عنه– "أنّ المغيرة رجل وازعٌ"، يريد أنّه صالح للتّقدّم على الجيش وتدبير أمرهم وتربيتهم في قتالهم[1].

وفي قوله تعالى: **"وحُشرَ لسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ والطَّيْرِ فَهُم يُوزَعُوْنَ"**(النّمل:17) .

أي : يحبس أولهم عن آخرهم، وقيل : يكفون [2].

الإلهام والإغراء.

أمَّا الإلهام فيقال: أوزعه الشّيء: ألْهَمَهُ إيَّاه وأولعه به[3].

وقد ورد هذا المعنى في قوله تعالى:**"وقَالَ ربِّ أَوْزِعْنِي أنَ اشْكُرَ نِعْمَتَكَ"**(النّمل:19)، أي: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ[4].

وقيل: بأنّ هذا المعنى هو: الإلهام، مأخوذ من المعنى الأوّل الذي هو: الكف، فيكون المعنى: كفَّني عن الأشياء إلاَّ عن شكر نعمتك، أي: كفَّني عمَّا يباعد منك[5].

وأمّا الإغراء فيقال: أوزعته بالشيء: أغريته به، فأوزع به فهو موزوع به،أي مغرى به، ومنه قول أحد الشّعراء[6]:"فهاب ضمران منه حين يوزعه" أي يغريه[7].

ب – تعريف الوازع اصطلاحاً.

لقد استعمل العلماء لفظ الوازع وما يشتق منه في كلامهم، غير أنّهم لم يضعوا تعريفاً اصطلاحياً خاصًّا به –في حدود ما اطّلعت عليه– على غرار ما تعارف عليه من وضع حدود ومفاهيم للمصطلحات الشّرعية الأخرى، ولعلَّ هذا ناتج عن حداثة هذا المصطلح، وأدق تعريف وجدته، هو تعريف الطّاهر بن عاشور إذ قال:"الوازع اسم غلب إطلاقه على ما يزع من عمل السوء."[8]

---

[1]– ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، مرجع سابق، ج5، ص179.

[2]– ابن العربي، أبو بكر محمّد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق وتخريج: عبد الرّزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة1425هـ-2004م، ط1،ج3 ،ص345.

[3]–ابن منظور، لسان العرب،مرجع سابق، ج8، ص391، مادة (وزع).

[4]– ابن العربي، أحكام القرآن، مرجع سابق، ج3، ص345.

[5]–المرجع السابق.

[6]– يُنسب هذا البيت للنّابغة الذّبياني، ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق،ج8، ص392.

[7]– الجوهري، الصّحاح، مرجع سابق، ج3، ص595، مادة (وزع).

[8]– ابن عاشور، محمّد الطّاهر، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، تحقيق: محمّد الطّاهر الميساوي، الأردن، دار النّفائس، ط1،2001م، ص137.

وكذلك تعريف السيد سابق حينما قال:"هو الشعور النّفسي الذي يقف من المرء موقفالرّقيب، يحث على أداء الواجب، وينهى عن التّقصير، ويحاسب بعد أداء العمل، مستريحاً للإحسان مستنكراً للإساءة."[1]

وعليه سوف أورد بعض أقوال العلماء التي تعطي مفاهيم جزئية لمعنى الوازع، غير أنها بمجموعها توصل إلى إظهار الإطار العام له، ونخلص بعد ذلك إلى ذكر تعريف للوازع – إن شاء الله-.

قال العز بن عبد السلام:"الخوف من الله الذي يزع عن المخالفات لما رتب عليها من العقوبات"[2]؛ أي يزجر الإنسان، ويجنّبه الوقوع في المخالفات الشّرعية.

قال ابن القيم:"الحياء من الله يدل على مراقبته وحضور القلب معه، لأن فيه من تعظيمه وإجلاله ما ليس في وازع الخوف، فمن وازعه الخوف، قلبه حاضر مع العقوبة، ومن وازعه الحياء، قلبه حاضر مع الله "[3]؛ أي: أن حضور القلب كان نتيجة الخوف من العقوبة، وأن الذي يمنعه الحياء من الله يحضر قلبه محبَّةُ الله.

قال ابن خلدون:"...وقد تبيَّن لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك وأن الأمر كان في أوله خلافة ووازع كُلّ أحد فيها من نفسه وهو الدين..."[4]، وقال أيضا:"فقد رأيت كيف صار الأمر إلى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحدِّي الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق ولم يظهر التغيُّر إلاَّ في الوازع الذي كان دينًا ثم انقلب عصبية."[5]

ومعنى ذلك أنّ نظام الحكم في المسلمين كان يتبع الوازع الأقوى لديهم، ولما غلب وازع العصبية القومية انقلب الحكم من الخلافة إلى الملك.

قال الشّاطبي:"يكتفي الشارع في طلبه بمقتضى الجبلة الطبيعية والعادات الجارية، فلا يتأكَّدُ الطلب تأكُّد غيره، حوالة الوازع الباعث على الموافقة دون المخالفة، وإن كان في نفس الأمر متأكِّداً."[6]

---

[1]- سابق، السّيّد، عناصر القوّة في الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، 1398هـ، ص48.

[2]- العز بن عبد السّلام، عزّ الدّين عبد العزيز، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، بيروت، دار الكتب العلميّة، د.ت، ج1، ص168.

[3]- إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، ابن قيم الجوزيّة، تحقيق:عصام الدّين الصّبابطي، القاهرة، دار الحديث، 1425هـ/2004م،ج3، ص383.

[4]- ابن خلدون، عبد الرّحمان، مقدّمة ابن خلدون، دار الرّشاد الحديثة،د.ت، ص207.

[5]- المرجع السابق، ص208.

[6]- الشّاطبي، إبراهيم بن موسى اللّخمي، الموافقات في أصول الشّريعة، تحقيق: عبد الله درّاز، بيروت، دار المعرفة،ط2001،5، ج3، ص122.

ومعناه أن هناك بعض الأشياء يتعين وجوبها لحفظ مقصد ضروري إلا أن الشارع الحكيم يكتفي بجعله مباحاً لوجود داعي الجبلة مثال ذلك الأكل والشرب لحفظ النفس.

ومن خلال إيرادنا لهذه الجملة من أقوال العلماء في استخدامهم للفظ الوازع سواءً باللّفظ الصّريح أو بالكناية الدّالة عليه فإنّنا نخلص إلى جملة من الأمور منها:

-أنَّ الوازع يتضمن في معناه أيضًا تحريك الواعظ في قلب المكلّف بحيث يجعل الجاني نكالاً وعظةً وعبرة لمن يريد أن يفعل فعله.

-أنَّ الوازع أيضًا في مفهومه الواسع يحمل معنى المحاسب والمؤنِّب للنّفس الأمَّارة بالسّوء.

- أن الوازع يكون في أحيانٍ كثيرة هو الدافع أو الباعث الذي يساعد المكلّف على الإتيان بالطَّاعات.

-أنّ الوازع هو المذكِّر بعذاب الله، والعقوبة المترتّبة على الجريمة، وهو المذكِّر أيضاً بالثّواب المترتّب على الصَّالحات، فيكون الوازع بمثابة المرشد لسلوك الإنسان في الحياة لبناء الحضارة والعمران.

ج-التّعريف المختار:

وبناءً على ما تقدّم ذكره، واستناداً لما أشار إليه العلماء في أقوالهم سالفة الذّكر، يمكن أن نعرِّف الوازع الدّيني بأنَّه:" هو ذلك الواعظ الموجود في قلب الإنسان الذي يوصله إلى فعل الصَّالحات، ويرشده إلى رجاء الثواب، ويبعده عن الانحراف و يبصّره بعواقبه".

- شرح التّعريف:

-الواعظ: وصف راسخ في القلب، يراقب عمل صاحبه ويحرسه، وهذا من شأنه أن يبعث السّرور في القلب وراء كل عمل صالح، وينزل الحزن والأسى عليه وراء كلّ خطيئة.

-الذي يوصله إلى فعل الصَّالحات : يدفعه إلى كلّ عمل صالح.

-يرشده إلى رجاء الثّواب: أي يكشف له عن ما يمكن أن يحجب عنه من ثواب مترتّب عن كلّ عمل خير.

-يبعده من الانحراف: أي يكفُّ النّفس عن هواها وشهواتها.

-يبصِّره بعواقبه: يظهر للإنسان، ويذكره بسوء عاقبة الانحراف.

2-إثباتمقصديّة الوازع الدّيني من القرآن الكريم.

إنّ النّاظر في كتاب الله يجد أنّ آياته جاءت بعناية ورعاية فائقة للوازع الدّيني، تحثّ عليه، وتشرّع ما يصونه ويحفظه، وتنهى عمّا يخرمه ويضعفه، وذلك من خلال المحاور الكبرى المكوّنة لموضوعاته، ويمكن تلخيص ذلك في النّقاط التّالية:

أ- عناية القرآن الكريم بأصل الإيمان بالله وتثبيته في القلوب :

ويتمثّل ذلك في التّذكير الدّائم بعظمة الله، وجبروته، وكبريائه، وتدبيره ورزقه، وكمال ملكه وعلمه، بالإضافة إلى برّه وإحسانه، ورحمته وسائر أسمائه وصفات كماله، وقد اختلفت أساليب القرآن

في ذلك فتارة بالتّرهيب وتارة بالتّرغيب، وكل ذلك غاية من البيان.

ويعتمد القرآن في ذلك أيضاً بتثبيت الوازع الدّيني، لأنّ الإيمان بوجود الله فطرة في النّفس الإنسانية، وهو أمر ضروري يحصل للإنسان كثمرة من ثمرات مواهبه العقلية[1].

يقول ابن القيم: "فهو سبحانه يذكر علمه عند شهادته، وقدرته وملكه عند مجازاته، وحكمته عند خلقه وأمره، ورحمته عند ذكر إرسال رسوله، وحلمه عند ذكر ذنوب عباده ومعاصيهم، وسمعه عند ذكر دعائهم، ومسألته وعزته وعلمه عند قضائه وقدره، فتأمل ورود أسمائه الحسنى في كتابه، وارتباطها بالخلق والأمر والثواب والعقاب."[2]

ويذكر سبحانه عباده بقصص الأنبياء والصالحين، مبيناً أثار أسمائه وصفاته في معيته لهم بالنصر والتمكين، وخذلانه وانتقامه لأعداء رسله من المكذّبين والمتكبّرين، ويختم الأحداث بما يناسب السّياق من معاني أسمائه وصفاته؛ كالقوّة والعزّة والقهر والغلبة[3] .

ومرة يذكّر الله عزّ وجل بأمره الشّرعي، ويفصّلفي أحكامه الشّرعيّة المحيطة بالحياة كلّها أمراً ونهياً ليقرّر كمال علمه وحكمته، وتارة يذكّر الله –عزّوجل– بقضائه الكوني بين خلقه في الرّزق والتّدبير والإحياء والإماتة والمنع والعطاء، والغضب والرضا، حتى يستيقظ الوازع الدّيني[4].

فإذا تجلى الله على خلقه بصفات العدل والانتقام والغضب والسخط والعقوبة، انقمعت النفس الأمّارة وبطلت أو ضعفت قواها، وفي المقابل يقوى الوازع الدّيني، إذا تجلى الله بصفات السّمع والبصر والعلم، إذ أنّ هذا من مغذيات الحياء الذي يعني في بعض صوره الوازع الديني[5].

ب– عناية القرآن بتذكير القلوب بالإيمان باليوم الأخر:

وأمّا عناية القرآن الكريم بتغذية القلوب بالإيمان باليوم الأخر، فتتمثّل في التّذكير الدّائم بالموت الذي هو أوّل منازل الآخرة، كقوله تعالى:"**وَلاَتَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلاَهاً آخَرَ لاَ إِلاَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهَ تُرْجَعُوْنَ**"(القصص:88).

فهذا ممّا يساعد على تنمية الوازع الدّيني وتقويته، فهو معتبر شرعاً ملحوظ في مقاصد القرآن الكريم.

---

[1]– طبارة عفيف، روح الدين الإسلامي، لبنان، دار العلم للملايين، ط3، 1995،ص75.

[2]– ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي،1973، ج3، ص266.

[3]– طبارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن الكريم،بيروت،دار الملايين، ط 23، 2004، ص24.

[4]– رشدي، مروان محمد، قاعدة سد الذرائع وأثارها التربوية في تحقيق العبودية وحفظ مقاصد الشريعة الإسلامية، الرياض، مكتبة الرشد، ط1، 1430ه/2009م،ص82.

[5]– ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الفوائد، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، بيروت، دار النفائس، ط7، 1406ه/1986م، ص92.

وأحياناً يضرب القرآن الأمثال للنّاس حتى يعتبروا، فقد شبّه الله-عزّوجل- الدّنيا وزخرفها، وزينتها، ومتاعها في آيات كثيرة بالغيث الذي ينبت زرعاً فيرى الزّارع اخضراره، وهيجانه، وجماله، ثم اصفراره، وذبوله، وتحطّمه في صورة حيّة متحرّكة مؤثّرة، وذلك إشارة إلى سرعة زوالها، وقصر أملها، وشدّة غرورها، وتذكيراً لمن استعبدته الدّنيا، وألهته وأغفلت قلبه عن آخرته[1]، والمقصود بذلك شحذ الهمم الموصلة إلى تقوية الوازع الديني.

وتارة تكون تقوية الوازع الديني بالتذكير بالجنّة والنّار ووصفهما حتّى تنزجر العقول والقلوب عن المعاصي، وتتشوّق في نفس الوقت إلى الجنّة والنّعيم والبهجة والسرور[2].

ج-اعتماد القرآن على التّربية بالتّاريخ من خلال قصص الأنبياء- عليهمالسّلام-وذكر أحوال الصّحابة-رضوان الله عليهم-.

ومن أمثلة ذلك:

- قال تعالى -في قصّة يوسف-عليه السّلام-: **"وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هِيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ"**(يوسف:23).

فقد نزلت الآية الكريمة في مدح يوسف-عليه السلام-لاختياره رضا ربه وجزاءه الأخروي من الوقوع في المعصية، وذلك يبين قوة الوازع الدّيني عنده.

فالسّورة هنا تعرض لنا شخصية يوسف-عليه السلام- وأنواع الابتلاءات التي تعرض لها وهي ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفي اتجاهاتها، ابتلاءات الشدة، وابتلاءات الرخاء، وابتلاءات الفتنة بالشهوة، والفتنة بالسّلطان[3].

ويخرج العبد الصّالح من هذه الابتلاءات والفتن كلّها نقيّاً خالصاً متجرّداً في وقفته الأخيرة، متّجهاً إلى ربّه بالدّعاء المنيب الخاشع[4].

الشّاهد في هذه القصّة أنّها تشير إلى الوازع الدّيني عند يوسف-عليه السّلام- الذي منعه من الوقوع في معصيته ربّه ودفعه إلى أن يختار رضا الله، فصاحب الوازع الدّيني دائماً يصبر على المعصية، ليؤثر طاعة الله ورضوانه.

-قال تعالى: **"وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُم الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِيْنَ"**(آل عمران:139).

نزلت هذه الآية الكريمة لما رجع المسلمون إلى المدينة وقد هدّهم الحزن، وفتّ في عضدهم هذه الهزيمة بعد النّصر الذي أصابوه فنزل الوحي الإلهي يواسي المسلمين ويرفع من روحهم المعنويّة، ويخفف

---

[1]-المرجع السابق.

[2]- ابن القيم، مدارج السّالكين، مرجع سابق، ج3، ص260-262.

[3]- طبّارة، عفيف، مع الأنبياء في القرآن الكريم، مرجع سابق، ص162-163.

[4]- قطب، سيد، في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ط13، ج4، ص1951-1952.

وقع الهزيمة عليهم[1].

وقد جاءت هذه الآيات تذكر المسلمين بمظاهر القوة والإيجابية، وبث فيهم روح الأمل الذي به يستعيدون وازعهم الدّيني، ويروي لهم ما حدث في التاريخ قبلهم بأن القيام بعد السقوط ليس أمراً بعيداً بل هو القاعدة والمبدأ، بشرط وجود الوازع الدّيني.

ولما حصل لهم المقصود من هذه الآيات وهو تقوية الوازع الديني، استجاب الصحابة-رضوان الله عليهم-للخروج مع النّبيّ-صلّى الله عليه وسلّم-في غزوة حمراء الأسد[2]، وهم الذين وضعوا السلاح قبل ساعات فقط، مثخنين بالجراح، فرائدهم في ذلك كله الوازع الدّيني الذي خالج صدورهم.

يقول البوطي:"وظهر لنا بما لا يدع مجالاً للتّوهّم أنّ النّصر إنّما يكون مع الصّبر وإطاعة أوامر القائد الصّالح واستهداف القصد الدّينيّ المجرّد."[3]

-قال تعالى:"**والذِيْنَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ والإِيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ**"(الحشر:9).

نزلت هذه الآية الكريمة في مدح الأنصار، الذين جعلوا الإيمان مستقرّاً ومتوطّناً لهم لتمكّنهم منه واستقامتهم عليه، يحبّون المؤمنين الذين هاجروا إليهم، ولا يجدون في صدورهم حسداً ولا غيظاً على ما خصّوا به المهاجرين من أموال الفيء، ويقدّمون إخوانهم على أنفسهم، ولو كان بهم فقر وحاجة، حيث يشير ذلك إلى قوّة الوازع الدّيني والإيماني عندهم[4].

- قال تعالى: "**وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيْمٌ**"(النور:16).

نزلت الآية الكريمة تعاقب الذين خاضوا في إشاعة الإفك، والمعنى أي هلاّ إذ سمعتم حديث الإفك قلتم تكذيباً للخائضين فيه المفترين له؛ ما ينبغي لنا ولا يمكننا أن نتكلّم بهذا الحديث الذي لا يصدر إلاّ ممّن ضعف وازعه الدّينيّ، ونقصت درجة الإيمان عنده[5].

قال القرطبيّ:"كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإن كان ذلك يبعد فيهم، فذلك في عائشة وصفوان أبعد، وروي أن هذا النّظرالسّديد وقع من أبي أيّوب

---

[1]-السعدي عبد الرحمان، تيسير الكريم الرحمان، بيروت، دار ابن حزم، ط1424،1ه/2003م، ص133.

[2]-الغزالي محمّد، فقه السيرة، خرّج أحاديثه: محمّد ناصر الدّين الألباني، الجزائر، مكتبة الرّحاب، ط2، سنة1407ه/1987م، ص273، حمراء الأسد: اسم مكان يبعد عن المدينة بثمانية أميال، المصدر نفسه.

[3]-البوطي محمد سعيد، فقه السيرة النّبويّة، دمشق، دار الفكر، ط11، 1412ه/1991م، ص184.

[4]-الزّمخشري محمود بن عمر، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحقيق عبد الرزّاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2، 2001، ج4، ص504-505.

[5]- السّعدي عبد الرّحمان، تيسير الكريم الرّحمان، مرجع سابق، ص535.

الأنصاري وامرأته، وذلك أنّه دخل عليها فقالتله: يا أبا أيوب أسمعت ما قيل؟فقال: نعم؛ وذلك الكذب، أكنت أنت يا أمّ أيّوب تفعلين ذلك؟ قالت: لا والله؛ قال: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيّوب: نعم"[1].

فهذا يبيّن قوّة الوازع الدّيني الذي يكون في مرتبة المراقب لأحوال وأقوال وأفعال صاحبه.

– حادثة تحريم الخمر، كان العرب في جاهليّتهم مولعين بالخمر، فلمّا جاء الإسلام تدرّج معهم في تحريمها، حتى نزلت الآية الصريحة، فلم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد يمرّ في نوادي المدينة ليعلن عن تحريم الخمر، فمن كان في يده كأس حطّمها، ومن كانت عنده أواني الخمر وجرارها كسّرها، وانتهى لأمر كأن لم يكن سكر، ولا خمر[2].

وهذا لاشك أوضح دليل على أنّ هذه الاستجابة السّريعة نابعة من ضمير حي، وناشئة عن وازع دينيّ قوي.

3–العلاقة بين مفهوم الوازع الدّيني ومفهوم الحضارة والعمران.

في منظومة المعرفة بمختلف فنونها وفروعها (علم التّاريخ، علم الآداب، علم الاجتماع، علم النّفس...)، نجد تعريفات كثيرة لكلمة الحضارة، ولمشتقّاتها المتكاثرة (التّحضّر، الفعل الحضاري، السّلوك الحضاري، الخلق الحضاري، صناعة الحضارات، البناء الحضاري، حوار الحضارات، العطاء الحضاري...)، كما نجد تعريفات متعدّدة لمترادفاتها الكثيرة (الثّقافة–المدنيّة–العمران....).

والذي يهمّنا في هذا الصّدد بالخصوص هو الالتقاء المجمل والمطلق والمبدئي بين هذه التّعاريف ومدلولاتها، وبين مضمون التّحضّر الدّيني ومقصوده ومآله، والمتمثّل في رعاية الوازع الدّيني، الذي يعتبر حجر الزّاوية في بناء الحضارات المختلفة.

وقد عرّفت الحضارة باعتبار مضمونها وفقهها بتعريفات كثيرة منها:

– أنّ "الحضارة لكلّ أمّة تحتوي كل مقوّمات الحياة فيها، ويستوي في ذلك المقوّمات المادّيّة والعلميّة والمعنويّة."[3]

– الحضارة: "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزّيادة في إنتاجه الثّقافي، وتتألّف من أربعة عناصر: الموارد الاقتصاديّة، والنّظم السّياسيّة، والتّقاليد الخلقيّة، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق لأنّه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحرّرت في نفسه دوافع التّطلّع وعوامل

---

[1]- القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة، دار الشعب، ط2، سنة1372هـ ، ج3ص256.

[2]– القرضاوي يوسف، الإيمان والحياة،بيروت، مؤسّسة الرّسالة، ط16، د.ت،ص186-187.

[3]– أمير عبد العزيز، دراسات في الثّقافة الإسلاميّة، مدخل إلى الدّين الإسلامي، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، ص51.

الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطّبيعيّة تستنهضه، للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها."[1]

– أنّ الحضارة هي:"التّدخّل الإنساني الإيجابي، لمواجهة ضرورات الطّبيعة، تجاوباً مع إرادة التّمرّد في الإنسان، وتحقيقاً لمزيد من اليسر في إرضاء حاجاته ولإنقاص العناء البشري."[2]

– أنّ الحضارة هي:"ذلك الكيان المعقّد الذي يضم المعرفة والمعتقدات والفنون والآداب، والقوانين والعادات، وجميع القدرات، والتّقاليد الأخرى، التي يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع."[3]

ومن خلال تعريفات الحضارة التي تكاد تتّفق على بيان جوهر التّفاعل الحضاري الذي هو الوازع الدّيني، وإن اختلفت العبارة في الدّلالة على ذلك، فإنّنا نقتنع بحقيقة الالتقاء بين فقه التّحضّر الإنساني المتمثّل في كونه أداءً إنسانيّاً مشتركاً يهدف إلى عمارة الأرض وحفظ نفوسها والانتفاع بمدّخراتها ومنع الخلل أو الاختلال فيها ودفع الفساد والضّرر عنها، وبين ضرورة الاهتداء في طريق تفعيل العمليّة التّحضّريّة الإنسانيّة في مختلف المجالات الحياتيّة بالمنهج الأخلاقي المنبثق عن رعاية الوازع الدّيني وحراسته.

وهذا ما نلمسه في تعريف المفكّر مالك بن نبي للحضارة حيث يقول:"الحضارة هي مجموع الشّروط الأخلاقيّة والمادّيّة التي تتيح لمجتمع معيّن أن يقدّم المساعدة الضّروريّة لكل فرد من أفراده، وفي كل طور من أطوار وجوده، منذ الطّفولة وحتّى الشّيخوخة، وفي كلّ مناحي الحياة"[4].

ثانياً: أسس الوازع الدّيني وأثرها في النّهوض الحضاري والعمراني.

1–أثر الإيمان بالله تعالى في النّهوض بالمجتمع الإسلامي.

إذا كان الأساس الأوّل والرّئيس للوازع الدّيني هو الإيمان بالله تعالى، فإنّه يتحصّل من ذلك افتقار المجتمع لهذا الأساس حتّى يكمل ويقوم بنيانه الحضاري، لأنّ من عوامل النّهوض الحضاري العقيدة التي تحمي المجتمع وتصونه من الانحرافات والانغماس في روافد المجتمعات المادية المهلكة.

وأهمّيّة الإيمان للمجتمع المسلم لا تقل أهمّيّة عن الماء للزّرع، أو الرّوح للجسد فكما أنّ الزّرع لا يعيش بدون ماء، والجسد لا يحيا بدون روح فكذلك المجتمع المسلم لا يحيا بدون إيمان يعضّده، ولا ينهض بدون عقيدة توجهه (فإذا ذهبت ريح الإيمان جاءت بالأعاجيب في الأعمال والأخلاق، ورأى

---

[1]– مصطفى السّباعي، من روائع حضارتنا، القاهرة، دار السّلام، 1426هـ/2005م، ط2، ص35، نقلاً عن قصّة الحضارة، ترجمة زكي نجيب، ط1956م.

[2]– السامرّائي، نحن والحضارة والشّهود، ج1/ص63، نقلاً عن المدنيّة، ترجمة عادل العوامي، ط: دمشق، ص12.

[3]–المرجع السابق، وقد نقل عن: معركة الحضارة، د: قسطنطين زريق، ص34.

[4]– القريشي علي ، ابن نبي آفاق جزائريّة، التّرجمة العربيّة، الجزائر، مكتبة النّهضة الجزائريّة، 1964، ص46–47.

النّاس روائع من الشّجاعة والقين والعفّة والأمانة وروح التّطوّع والاحتساب، ورأوا آيات من العدل، والرّحمة، والمحبّة، والوفاء، كادوا ينسونها ويقطعون منها الرّجاء)[1].

والإيمان بالله تعالى يخلق توازناً عاماً وشاملاً داخل النّفس والمجتمع توازناً من شأنه أن يرقى بالمسلمين، ويحقّق لهم الشّهود الحضاري المأمول، ومن صور هذا التّوازن:

أ–التّوازن النّفسي: فالإيمان بالله تعالى حياة الإنسان وهو سبيله الوحيد إلى تحقيق أمن نفسه، وكما يقول الشيخ محمّد الغزالي:"فحقّ الحياة محفوظ لضروب الإيمان المنتمية إلى السّماء."[2]

والإيمان يربّي المسلم على الخضوع لله وحده، والتّقرّب إليه، والخوف منه فهو الذي يمنح ويمنع، وهو الذي يثيب ويعاقب وبهذه العقيدة القويّة تتغلغل جذور العزّة في نفس المؤمن[3].

والإيمان هو عماد الحياة الرّوحية ومنبع كلّ طمأنينة نفسه، ومصدر كلّ سعادة، ولا يتأتّى هذا الإيمان من الاعتقاد بأنّ هنالك إلهاً يسيطر على هذا العالم فقط ولكن بمعرفة قدسيّة الله وعظمته في نفسه، وظهور آثار هذا الإيمان بالأعمال التي تصدر عنه، فالإيمان بالله يطلق النّفس من قيودها المادية، فتستنكر الشّهوات ولا تبالي بالمنافع والمضار الخاصة فيسعى الإنسان لنفسه ولأمّته وللنّاس جميعاً ضمن قوانين الحق العامة وسنن الخير الشّاملة[4].

فالتّوازن النّفسي من عوامل النّهوض الحضاري وهو نتيجة للوازع الدّيني الذي هو مقصد من مقاصد القرآن يهدي إليه الإيمان بالله تعالى.

ب–التّوازن الاجتماعي: فالإيمان يخلق نوعاً من التّآلف والتّضامن والإخاء بين أفراد المجتمع الإسلامي، فلا أنانية ولا حبّاً للذّات في وجود الإيمان، والتّوازن الاجتماعي الذي يعتبر مظهراً من مظاهر الحضارة الإنسانية وعاملاً من عوامل العمران البشري والتّعايش الأخوي لا يتحقّق إلاّ إذا قوي الوازع الدّيني الذي يهدي صاحبه إلى أن يتذكّر الحساب من الله تعالى، فيقف عند حدوده ولا يتجاوزها، ويحبّ لإخوانه ما يحبّ لنفسه، وقد بنى النّبيّ–صلّى الله عليه وسلّم– حضارةً في المدينة المنوّرة على دعائم المحبّة والإخاء والسّلام والإيثار والكرم، ويتجلّى ذلك في مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار.

ج–التّوازن الأخلاقي: فالإيمان بالله تعالى مصدر رئيس من مصادر الإلزام الأخلاقي، فهو يفرض على الإنسان ألاّ يقول إلاّ طيّباً، ولا يعمل إلاّ طيّباً صالحاً، وأن يتوافق مظهره مع مخبره، فالإيمان هو أوّل

---

[1]– النّدويأبو الحسن ، إذا هبّت ريح الإيمان، بيروت، مؤسسة الرّسالة، ط10، 1985، ص7.

[2]– الغزالي محمّد، مع الله دراسات في الدّعوة والدّعاء، القاهرة، دار الكتب الإسلامية، ط6، 1985، ص303.

[3]–آمنة أحمد حسن، نظريّة التّربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرّسول–صلّى الله عليه وسلّم–دار المعارف، ط1، 1985، ص354.

[4]–طبّارة عفيف، روح الدّين الإسلامي، مرجع سابق، ص172.

دعائم الوحدة الرّوحيّة في المجتمع، وأقوى ضابط لسّلوك الفرد والجماعة، وأعدل ميزان توزن به الأعمال والأخلاق، وهذا الإيمان يعتمد قبل كلّ شيء على الوجدان والقناعة والعلم، ولا يفرض بالقوّة والسّلطان، فالإيمان باعتباره أساس الوازع الدّيني يعتبر نقطة الانطلاق نحو الحضارة والنّهوض والرّقي والمادي والأدبي، والسّعادة في الدّارين، كما أنّ التّمسّك بالأخلاق الإيمانية يقود إلى الشّهود الحضاري[1].

د–التّوازن الاقتصادي: فللإيمان بالله أيضاً دور مهم في تحقيق وإرساء دعائم التّوازن الاقتصادي المادّي باعتباره من مقوّمات الحضارة والعمران داخل المجتمع المسلم، ذلك لأنّ الإيمان بالله هو الذي يصنع لصاحبه عقلية ينظر بها إلى نفسه وإلى الكون، وإلى المال والحياة، وإلى الأشياء والقيم، والوازع الدّيني باعتباره مؤسّس على الإيمان بالله تعالى هو الذي يصنع لصاحبه قلباً يشعر ويحسّ ويتعامل مع الله والكون والنّاس والحياة ببصيرة وحيويّة.

والوازع الدّيني من شأنه أن يخفّف من غلواء الطّمع، ومن سعار المنافسة، ومن داء التّكالب والتّزاحم على المادة، ويُسند الفرد إلى أصول ثابتة من القيم الرّفيعة، والمثل العليا، فتنير طريقه، وتسدّد خطواته، وترفعه من الحيوانية الهابطة إلى الإنسانيّة الرّاشدة، فتراه يرفض الحرام بإصرار، ويقبل الحلال القليل بقناعة[2].

يقول ابن تيمية: "فالغلاء بارتفاع الأسعار والرّخص بانخفاضها هما من جملة الحوادث التي لا خالق لها إلاّ الله تعالى وحده، ولا يكون شيء منها إلاّ بمشيئته وقدرته، لكن هو سبحانه قد جعل بعض أفعال العباد سبباً في بعض الحوادث كما جعل قتل القاتل سبباً في موت المقتول، وجعل ارتفاع الأسعار قد يكون بسبب ظلم العباد، وانخفاظها قد يكون بسبب إحسان بعض النّاس."[3]

وهذه المسألة أخذت من ذوي الاختصاص عقليات جبّارة ودراسات مستفيضة في مؤتمرات ذات شأن، لكنّهم لا يدرون ما الذي يعجزهم عن التّحكّم في الأسعار، لاسيما ما يسمّى بالبورصة وأسعار الأسهم وما إليها؟ وما الذي أفشل قواعدهم الاقتصاديّة وقيودهم الماليّة؟ وكم من دراسة اقتصاديّة جمع لها صاحبها كبار الخبراء والمحاسبين باءت بالفشل بعد أن جزم الجميع بالنّجاح، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

هـ–التّوازن والاستقرار السّياسي: فالاستقرار السياسي مظهر حضاري، وعامل من عوامل البناء العمراني، ومن خلاله تتطوّر الصّناعة ويتطوّر الاقتصاد، ويتماسك المجتمع، وتزدهر الحضارة، ولقد كانت

---

[1]–الرّافعي مصطفى، الإسلام ومشكلات العصر، بيروت، دار الكتاب اللّبناني، ط2، 1981، ص54.

[2]–القرضاوي، يوسف، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1995، ص39-40.

[3]–ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، جمع وترتيب عبد الرّحيم بن محمّد قاسم بمساعدة ابنه محمّد، دار المعارف، الرّباط، المملكة المغربيّة،د.ت، ج8، ص520.

الأمّة الإسلامية دولةً واحدة من المحيط الأطلسي إلى ما وراء الخليج العربي، بل وصلت إلى جنوب فرنسا يوم كان الوازع الدّيني قويّاً عند أكثر أفراد الأمّة، وهو الغالب في التّعامل بينهم وهو السّائد في قصور الحكم وبيوت الخلافة، ثمّ ما لبث أن تفرّق جمعهم وانهارت حضارتهم بسبب فقد ذلك المقصد القرآني الكبير وغيابه في مجالات التّعامل والحياة جميعاً، ولقد أشار العلاّمة ابن خلدون-رحمه الله- أنّ نظام الحكم في المسلمين كان يتبع الوازع الأقوى لديهم، فلمّا كان الوازع الأقوى عندهم دينيّاً كان الحكم لديهم خلافة راشدةً، ولما كان عهد بني أمّية غلب وازع العصبيّة القوميّة بعض الشّيء فانتقل الحكم من الخلافة إلى الملك، ولكنّ الملك جائز وإن كانت الخلافة أكمل وأفضل وكان ملكهم ملك رحمة لأنّهم لا يزالون على كثير من الخير من جهة الوازع الدّيني على الرّغم ممّا دهمهم من وازع أقوى[1].

يقول الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور-رحمه الله-وهو يحلّل نظرة ابن خلدون لهذه الفكرة:"...إذ يجعل-أي ابن خلدون-فساد الدّولة وانقلاب الخلافة إلى ملك أمراً عرضياً ليس من شأنه أن يؤثّر في جملة المظاهر العمرانية لدولة الإسلام...وأرجع الأمر كلّه إلى الحقّ والباطل، وإلى حسن القصد وسوء القصد، بحسب ما يكون بين نفوس الأفراد من عقد وأمانة، وفي سلوكهم من استقامة وإخلاص...والذين طغت عليهم نزعاتهم النّفسية، فاستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرير القصد فيها، واعتماد الحقّ في مذاهبها هم الذين نبذوا الدّين وراءهم ظهريّاًفتغيّر الوازع الدّيني إلى مقاصد التّغلّب والقهر، والتّقلّب في الشّهوات والملاذ، وأصبحت العصبيّة عصبية دولة، ولا عصبية دين.

لقد أرجع ابن خلدون الحضارة الإسلامية إلى أصلها أو أساسها، أو بالأوضح إلى روحها وهو العقيدة الدّينية."[2]

و-أثر الإيمان بالله تعالى في دفع مكائد الحضارة الغربية: إذا كنّا نتّفق أنّ الحضارة الإنسانية حضارة مشتركة ومتراكمة يبني اللاّحق فيها على بناء السّابق بغض النّظر عن المعتقد والعرق والجنس والفكر والمرجعيّة وذلك في الكثير من جوانب البناء الحضاري كونه موروثاً بشريّاً مشتركاً، وقد جاء النّبيّ -صلّى الله عليه وسلّم- ليتمّم مكارم الأخلاق، وبنى كثيراً من الأمور على ما كان سائداً في الجاهليّة واعتبرها عوناً له في بناء حضارة الإسلام، فإن كنّا نسلّم بذلك فإنّنا لا نغفل مكائد الحضارة الغربية،وإن كانت تلك القوّة تتنوّع وتتباين أشكالها إلاّ أنّني لا أحسبها سوى قوّة الإيمان فمنها تتفرّع سائر القوى

[1]-ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص374.

[2]-نقلاً عن عمر عبيد حسنة، في النّهوض الحضاري، بيروت، المكتب الإسلامي، ط1، 1414هـ /1996م، ص60-61، ولم ينسبه إلى مرجع معيّن.

المعنويّة والماديّة الأخرى، فالإيمان بالله هو سبيل مواجهة أيّ اعتداء يقع على الفرد والمجتمع من قبل الغزاة.

فمن شأن هذه القوّة أن ترهب أعداء هذا الدّين فلا يفكّرون في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميهاالقوّة، ولا يفكّرون في الوقوف في وجه المدّ الإسلامي[1].

وقد قدّم لنا رسول الله–صلّى الله عليه وسلّم–الحجّة البالغة، والمثل الأعلى في بيان أثر الإيمان في ترقية السلوك، وتغيير أحوال الشّعوب، وتحقيق النّصر، يدلّك على ذلك ما قاله هرقل عظيم الرّوم لأبي سفيان بن حرب عندما سأله عن أحوال المسلمين والنّبيّ–صلّى الله عليه وسلّم–فأجابه بما أجابه به فقال هرقل:"...ولو أنّي أعلم أنّي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغنّ ملكه ما تحت قدمي."[2]

وقد تحقّق ما تنبّأ به هرقل وملك المسلمون بقاع متفرّقة من ممالك الغرب الأوربّي بفضل إيمانهم وتمسّكهم بعقيدتهم.

ولذلك فالإيمان والوازع الدّيني المتأسّس عليه هو خطّ دفاعنا ضدّ مخاطر الاستعمار والقابليّة إليه كالتّنصير، والاستشراق، والشّيوعية والتّغريب، والحداثة، والعلمانيّة، وغير ذلك من أدوات، فينبغي أن نعمل جاهدين على استعادة ثقتنا في أنفسنا، وتجديد إيماننا بخالقنا وتقوية نوازع الإيمان فينا حتّى يصبح المسلم كالغيث حيثما حلّ نفع، قال محمّد إقبال:"المسلم كالشّمس، إذا غربت في جهة طلعت في جهة أخرى فهي لا تزال طالعة."[3]

2–أثر التّربية الإسلامية في النّهوض بالمجتمع الإسلامي.

التّربية الإسلامية باعتبارها مظهراً حضاريّاً لها دور مؤثّر في إقامة مجتمع إسلامي راشد قويّ البنيان مترابط الأطراف مستقرّ هادئ آمن متحضّر، ويمكن تلخيص ذلك الأثر فيما يلي:

أ–تهذيب النّفس: فالتّربية الإسلامية لم تعمل على قمع الغرائز وكبتها، ولكنّها عملت على تعديلها وترتيبها وتهذيبها وتوجيهها بالإرشاد والنّصح إلى الطّريق المستقيم، وإخضاعها لسلطان العقل والتّفكير والحكمة، وإدخال القوّة النّاطقة وهي التّفكير لدى الإنسان في الحكم والتّوجيه[4].

والتّربية أيضاً توجد في النّفس تماسكاً وصموداً أمام الأحداث وتحدث فيها توازناً يشمل جميع

---

[1]–قطب سيّد، في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط4، 1986، ج3، ص454.

[2]–جزء من حديث طويل رواه البخاري في صحيحه،كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم- رقم7، ج1، ص39-40-41.

[3]–شلبي عبد الودود، أبو جهل يظهر في بلاد الغرب، القاهرة، مكتبة الشروق، ط1، 1995، ص15.

[4]–الإبراشي محمّد عطية، التّربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار الفكر العربي، ط3،د.ت، ص44.

آفاقها حتّى يتحقّق للإنسان كيان فريد في سلوكه، واتّجاهاته، وميوله، وعواطفه، فلا يطغى أيّ جانب من الدّوافع النّفسيّة على جوانب الرّوح، ولا تستعبده أيّ نزعات الهوى والشّرور، وإنّما تتحقّق للإنسان قيادة رشيدة على نفسه، وضبط كامل لنزعاته وشهواته[1].

فالنّفس الإنسانية لها وازع ونوازع وقابليات واستعدادات وسجايا وجبلات فحيثما تتعهّدها بالأخلاق الفاضلة، وتمدّها بماء العلوم والمعارف، وترفدها بالعمل الصّالح، فإنّها تنشأ على الخير، وتدرج على الكمال ويكون صاحبها كالملك يمشي في النّاس، والعكس بالعكس[2].

ولذلك أرقى المجتمعات حضارة من تهذّبت نفوس أفرادها وأصبح لها وازع يأمرها وينهاها، فلا تحتاج إلى سلطان المجتمع ولا سلطان القانون، وإنّما تكتفي بالوازع الدّاخلي، فما حال المجتمع المسلم إذا روعي فيه مقصد الوازع الدّيني المبني على أساس التّربية الإسلامية وتهذيب النّفس.

ب–تنمية المجتمع: فالتّربية الإسلامية التي يتأسس عليها الوازع الدّيني تهدف إلى تنمية المجتمع تنميةً شاملةً من جميع جوانب شخصيتها دينيّاً وأخلاقيّاً واجتماعيّاً وسياسيّاً واقتصاديّاً وعسكريّاً حتّى يكون المجتمع خيراً لذاته ولغيره، ومن أهمّ الجوانب التي تعنى بالتّربية الإسلامية برعايتها في المجتمع ما يلي[3]:

–تنمّي المجتمع دينياً بتمسّكها بالعقيدة الإسلامية الصّحيحة، عقيدة التّوحيد، وبإخلاص العبودية فيها لله وحده، وبتطبيقاتها لشريعة الله فيها، إلى غير ذلك من تعاليم إسلامية تبنيها دينيّاً.

–تنمّي المجتمع أخلاقيّاً بتمسّكها بالقيم الأخلاقية الإسلامية سواء كانت أخلاقاً فردية، أو أسريّة، أو اجتماعية، وما يتبعها من عادات وتقاليد وأعراف أو كانت أخلاقاً دوليةً إنسانيةً.

–وتنمّي المجتمع اجتماعيّاً بالبناء الاجتماعي السّليم داخل الأسرة وفي المجتمع ككل، ثمّ بالبناء الإجتماعي الإنساني على مستوى الأمّة الإسلامية.

–وتنمّي المجتمع سياسيّاً بتطبيقاتها لشرع الله، وتنظيم شؤون الحكم والسّياسة في ربوعها على أساس من الشّورى والعدالة، وطاعة الحاكم ونصحه، وغير ذلك من مبادئ السّياسة الإسلامية.

–وتنمّي المجتمع اقتصاديّاً بالعمل والإنتاج، وبالاستثمار وفيما هو مشروع، وبترشيد الإنفاق والاستهلاك، وبالبعد عمّا حرّمه الله من سرقة واختلاس، ومن ربا وتطفيف في الكيل والميزان، وأكل أموال النّاس بالباطل.

–وتنمّي المجتمع عسكريّاً بإعداد العدّة للحماية والدّفاع، والحيطة والحذر من الأعداء المتربّصين

---

[1]–المرجع السّابق، ص46.

[2]–علوان عبد الله ناصح، تربية الأولاد في الإسلام، القاهرة، دار السّلام، ط3، 1999، ج2، ص502.

[3]–القاضي سعيد إسماعيل، أصول التّربية الإسلامية، بيروت، عالم الكتب، ط1، 2000، ص86–87.

بالحضارة الإسلامية ومبادئها، وبالجهاد في سبيل ذلك والاستبسال فيه.

والتّربية الإسلامية التي نعنيها هي التي حوّلت في ربع قرن شعباً منطلقاً في ثقافته وحضارته ومدنيّته فتجعل منه شعباً قائداً رائداً للعالم المتحضّر يومئذ فاتحاً فكره للعالم، وقلبه للإنسانية جمعاء، ونفسه لحبّ الخير والسّعي إليه حيث كان مقدّماً جميع قواه وطاقاته للعمل المثمر في سبيل مجد الإنسانية وسعادتها الدّنيويّة والأخرويّة، وفي سبيل تحرير الإنسان من العبوديات المختلقات، وربطه فقط بعبوديّته للقوّة القاهرة العليمة الحكيمة غير المنظورة وهي العبودية لله وحده لا شريك له، وهي العبودية الاعتقاديّة والعلمية الموافقة للحقيقة التي عليها واقع كلّ مخلوق.

ج–أثر التّربية الإسلامية في دفع مكائد الحضارة الغربية: فالمجتمع المسلم المعاصر في أمسّ الحاجة إلى روح قويّة تخلّصه من ربقة التّربية الغربية التي فرضتها عليه الحضارة الغربية في فترة الاستعمار وفترة ما بعد الاستعمار وفترة القابلية للاستعمار، فهو في حاجة إلى روح إنسانية تملأ نفوس أبنائه قبل حاجته إلى قوانين تملأ دواوين الدّولة، إنّه في حاجة إلى شعور يستمدّ من الله سموّه وصفاءه ويؤمن بالحقّ، ويخضع له خضوع العابد في محرابه، ويثمر فيه بناءً وإنشاءً قبل أن يكون مظاهرةً وادّعاءً[1].

ومنهج التّربية الإسلامية المؤسّسة للوازع الدّيني تملك مقوّمات النّهوض والتّحرّر من سيطرة الحضارة الغربية، وهي دون غيرها التي تتدفّق بالخير فهي إذا تغلغلت في جميع الاتّجاهات الإنسانية، فمن خصائصها أنّها تزيل روح الشّر من النّفوس، وتدفع الفرد والمجتمع والحضارة إلى التّقدّم وبذلك نكون قد بنينا حياةً إنسانيّةً خيّرةً ومتقدّمةً في نفس الوقت[2].

ومن أجل تحقيق أعلى النّتائج الممكنة في مواجهة الحضارة الغربية المعاصرة بالتّربية الإسلامية ينبغي مراعاة ما يلي[3]:

–أن تربط التّربية بالعلم والتّكنولوجيا، لأنّ التّقدّم العلمي التّكنولوجي التّقني إذا لم يجد قوّة روحيّة ووازعاً دينيّاً يدفع به إلى منافذ الحقّ والخير سيكون ضرره على المجتمع أكثر من نفعه،(فمفتاح الحضارة لا تتمثّل كما يتوهّم بعض السّطحيين في علوم التكنولوجيا، والمشاريع الاقتصاديّة المرسومة، والتّجهيزات الصّناعية الضّخمة، بل ما أقرب أن تغدو هذه الأساليب أعباءً وأثقالاً على كواهل أصحابها إن لم تنهض بدورها على قاعدة راسخة من المعارف الإنسانية الرّشيدة، لا تكتفي بالتّغلغل في طوايا الفكر

---

[1]–السّباعي مصطفى، أخلاقنا الاجتماعيّة، القاهرة، دار السّلام، ط1، 1988، ص39.

[2]–البوطي، محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، ضمن كتاب الأصالة ملتقى القرآن الكريم، قسنطينة، الجزائر، دار البعث،د.ت، ج4، ص126.

[3]–يالجن مقداد، دور التّربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، القاهرة، دار الشّروق، ط1، 1983، ص6.

والعقل، بل تتجاوزها إلى أعماق النّفس والوجدان، ذلك لأنّ الوعي العلمي والتّربوي هو الذي يحرّك المصانع في طرقها الصّحيحة، ويدفع الجهود التّقنية إلى النّتائج المرضية ويحرس النّشاطات الاقتصاديّة المختلفة أن لا تنحرف إلى سبيل الخيانة والغلول)[1].

-أن تكون التّربية الإسلامية هي المعيار الذي نزن به ما نريد الانتفاع به واقتباسه من الحضارة الغربية فنعرض عليها ما عند الغرب من منجزات وندع الحكم لها، وإن وافقت تلك المنجزات التّعاليم الإسلامية التّربويّة فلا بأس من الانتفاع بها، وإذا عارضتها وجب تركها خضوعاً لحكم التّربية الإسلامية ومنطقها الذي هو الأساس لحكم الإسلام ومنطقه.

-أن تكون لدينا قناعة وثقة بنجاعة وصلاحية التّربية الإسلامية ومناهجها لقيادة المجتمع المسلم، وأن تمارس تلك التّربية عمليّاً في المدرسة والبيت والشّارع والمصنع، والمتجر، والحقل، والمسجد والمعهد، وغير ذلك من مؤسّسات ترتبط بحياة المجتمع اليومية حتّى يصبح الوازع الدّيني أمراً مشاعاً تتربّى عليه أكثر أو أغلب نفوس أفراد المجتمع المسلم فيشكّل حصانة ذاتية من كلّ مخاطر الحضارة الغربية، ويحاول أسلمة تلك الحضارة والاستفادة منها في ظلّ ذلك الوازع الإيماني الهادي.

د-مقصد الوازع الدّيني بين التّصوّف والتّطرّف: إذا كان الوازع الدّيني مقصداً قرآنيّاً بالأهمّيّة التي علمنا في المنظومة الحضاريّة والعمرانية، فإنّه لابدّ وأن يكون محافظاً على وسطيّته حتّى يقوم بمهمّته في إقامة الحضارة والعمران، وإلاّ كان خراباً ودماراً فإذا اقتصر على النّظرة السّلبية للحياة ولم يعرف إلاّ ثقافة الموت وأصبح يتحدّث عن الموت وعن القبر، تخندق في بيته وانطوى على نفسه ومن ثمّة يكون زهده في الحياة ومفاصلها وشؤونها هدماً للحضارة والعمران، وإذا قاد الوازع الدّيني صاحبه إلى فكرة التّكفير والتّفجير والتّقتيل فهذا أيضاً لا يبني حضارة ولا يشيّد عمراناً، وعليه فنحن في حاجة إلى بيان فاعلية الوازع الدّيني وضوابطه، وهو الذي يجمع بين الدّنيا والآخرة والرّوح والمادة، والحوار والنّقاش، والأخلاق والعبادة، والحركة والتّحرّر وغيرها من ثنائيات الحياة والقيم والإنجاز والفاعلية.

والتّصوّف في أصله استعلاء بالنّفس على شهوات الجسد، ومتاع الحياة الدّنيا وزخرفها، ولكن ينبغي أن لا يزيد عن حدّه فيصل إلى السّلبية وإلى حدّ تعطيل عجلة التّطوّر والتّقدّم، والتّخلّي عن أسبابها مطلقاً والاتّكال على المكاشفات والكرامات، ونحن عندنا في الجزائر في الحقبة الاستعمارية عانى العلماء والمصلحون في ذلك الوقت من طائفة رضيت بالاستعمار، ومن غلوّها في التّسليم للمكاشفات والكرامات والمنامات أنكروا الجهاد في سبيل الله، ووقفوا في وجه الحركة الثّورية التّحررية، التي كانت بعد فضل الله تعالى سبباً في استرجاع السّيادة الذي هو أوّل واجب على الدّاعين للحضارة والعمران، وينتظرون أن يأتي التّقدّم والعلم والحضارة عن طريق المنامات أو المكاشفات وما إلى ذلك بدون عمل ولا

[1]-المرجع السّابق، ص61.

بذل ولا علم، يقول ابن خلدون في مثل أولئك: "وقد كان الصّحابة –رضي الله عنهم–على مثل هذه المجاهدة، وكان حظّهم من هذه الكرامات أوفر الحظوظ، ولكنّهم لم يقع لهم عناية وفي فضائل أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، كثير منها."[1]

يريد ابن خلدون أن يقول: إنّ هذه المكاشفات والكرامات التي يدّعيها بعض أهل التّصوّف ويعدّونها ثمرة من ثمار الطّريق الذي يسلكون قد كان لصحابة رسول الله–صلّى الله عليه وسلّم– كثير منها، ولكنّهم لم يطلبوها ولم يعملوا لها، وإنّما عملوا لله فأكرمهم الله بهذه الكرامات التي لم يلتفتوا إليها، ولم ينادوا في النّاس بها كما يفعل المتصوّفة، فقد ادّعوا أشياء لمشايخهم يستحيل أن يصدّق بها العقل المتحضّر من مخاطبة الله كفاحاً، وإحياء الموتى، وقضاء حاجات المحتاجين، وتفريج كرب المكروبين ممّا تجده في كتاب الطّبقات للشّعراني وغيره.

يقول عبد الكريم الخطيب:"فإذا قلنا إنّ التّصوّف أدّى هذا الدّور الذي ساق الأمّة الإسلامية إلى ما تعانيه اليوم من ضعف، وفقر، وتخلّف، كان لقولنا هذا أكثر من شاهد...فهذه مئات الألوف من المتصوّفة بل ملاينها ولا عمل لهم في هذه الحياة إلاّ أن يأكلوا ممّا تغرسه أيدي العاملين، وعرق المكافحين، إنّ هذه القوّة الكبيرة المعطّلة هي سبب واضح في شدّنا إلى الوراء وفي تعويق مسيرتنا في أن نلحق بركب الحضارة الجاد المنطلق في كلّ اتّجاه للبناء والتّعمير...وإذا كان في حكمنا هذا على التّصوّف شيء من الجدّ والصّرامة، فإنّ أمرنا يحتاج إلى كثير من الجدّ والصّرامة، حتّى تتخلّص من تلك القيود الثّقيلة التي أوهت عزائمنا وحطّمت ظهورنا...إنّ الإسلام إنّما يلزم أتباعه الطّريق الوسط في الحياة، ويقيمهم مقاماً عدلاً مع الدّين والدّنيا، وأشواق الرّوح ومطالب الجسد."[2]

وعلى الطّرف الآخر فإنّ الغلوّ والتّطرّف أيضاً هادم للحضارة والبنيان والتّطرّف له أسباب كثيرة ومتعدّدة منها ما هو فكري، ومنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو تربوي ديني.

وغالباً ما ينشأ التّطرّف من حماسة زائدة غير واعية للدّين ويظنّ بعض الشّباب خاصّة أن قوّة الوازع الدّيني في نفوسهم تدعوهم إلى أن لا يجنحوا للسّلم، وتجدهم يتضايقون من التّغيير والإصلاح المتدرّج، فيرمون بكلّ ثقلهم في مستنقع التّفجير والتّكفير والتّدمير، وهي لعمري سبيل إلى نقض عرى الإسلام وطريق إلى تشويه الدّين، وتعريضه إلى الانتقاء والانتقاص من لدن المغرضين والمتربّصين[3].

فالتّصوّف والتّطرّف ناشئ كلّ واحد منهما بسبب تضخّم الآخر، ونحن نريد أن يكون الوازع الدّيني وازعاً وسطيّاً قائماً على النّصوص الشّرعية ومراعاة الواقع رعاية المآل حتّى ينتج حضارةً

---

[1]–ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص180.

[2]–الخطيب عبد الكريم، مسلمون وكفى، دار الشروق، د.ت، 86-87.

[3]–الظّاهري خالد، دور التّربية الإسلامية في الإرهاب، الرياض، دار الكتب العلمية، ط1، 1422ه/2002م، ص65.

راقيةًوعمراناً بشريّاً سليماً.

ثالثاً: مقصد الوازع الدّيني ومكوّنات الحضارة والعمران.

1-مكانة الوازع الدّيني في تفعيل عناصر الحضارة ومكوّناتها.

إذا كانت الحضارة تفتقد إلى مكوّنات مادّية فإنّ لها مكوّنات أخرى معنويّة، هي الرّابط الأساسي لتلك المكوّنات المادّية، لأنّ الحضارة هي عبارة عن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرّباني القائم على الإيمان بالله تعالى والتّخلّق بقيم التّربية الإسلامية.

والمكوّنات المادّية للحضارة ثلاثة: الإنسان والتّراب والزّمن، والمكوّن المعنوي هو الفكرة الدّينية كما يحلو للمفكّر مالك بن نبي أن يسمّيها، والتي تضمن تفاعل هذه العناصر الثلاثة، فالحضارة إذاً هي قرار إنساني يعتمد على الإنسان والفكر ثمّ الأشياء، ويربط بينها العنصر الأخلاقي والوازع الدّيني.

ولذلك نجد الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور-رحمه الله تعالى-يشيد بمن يربط النّهوض الحضاري بالوازع الدّيني ويبني منهج العمران البشري عليه فيقول:"إنّ الذين تناولوا مشكلة الحضارة الإسلامية من أبنائها هم ثلّة من الأوّلين وقليل من الآخرين، وقد كان العلامة ولي الدّين ابن خلدون من بين هؤلاء، وهؤلاء أجدر من طأطأت لهم الرّؤوس اعترافا بدقيق تحليله لهذه المشكلة، وإجلالاً لحسن عرضه إيّاها، وحكم بيانه لها، لأنّه تناولها على منهج دراسيّ نظريّ، مؤصّل مفصّل، إذ نظر إلى طبيعة الدّولة الإسلامية ومقوّماتها، وفكّك بين الأصول التي قامت عليها، وبين الواقع الذي آلت إليه، ورجع إلى النّفسية الفرديّة للمسلم بين عهد السّلف وعهد الخلف، يضبط حقيقتها من حيث تتمثّل الصّورة الاجتماعية للأمّة، في ما يصدر عنها في كلّ عصر من مدارك الحضارة والثّقافة، على ما اختلف ذلك قرباً وبعداً من حقيقة الدّين ومن حقيقة المظهر المثالي الكامل الذي ينبغي أن يبرز فيه المجتمع الذي يتكوّن بهذا الدّين، فجعل شؤون السياسة والعمران والصّناعة والعلم في الدّولة الإسلامية تبعاً لشأن الدّين، وجعل الحقيقة الأولى للدّين هي العقيدة الفردية...فردّ ذلك كلّه إلى صورة تكوّن الفرد تكوّناً إيمانيّاً يرتبط من جهة بالدّين الإسلامي في عقيدته ويسري منه إلى كلّ ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعية وفكريّة."[1]

وإذا بحثنا عن مقصد الوازع الدّيني وعلاقته بمكوّنات الحضارة الإنسانية ترآى لنا أنّه يعتبر بمثابة حجر الأساس في تفاعل تلك العناصر من أجل بناء حضارة متكاملة تهتمّ بالمادة ولا تنسى الرّوح، وتربط الإنسان بالزّمان والمكان، وتوصله إلى السّماء ولا تقتلعه من الأرض، فيظلّ التّوازن الحضاري قائماً ما كان الوازع الدّيني هو الرّابط والمحرّك لتلك العناصر والمكوّنات الحضاريّة، وسقطت الحضارات السّابقة إلاّ بسبب عدم وجود هذا الرّابط وهو الوازع الدّيني أو ضعفه، ولذلك يقول المفكّر مالك بن نبي-رحمه

[1]-نقلاً عن عمر عبيد حسنة، في النّهوض الحضاري، مرجع سابق، ص57.

الله-:"...وليست الحضارة سوى محصّلة تفاعل الجهد الإنساني مع سنن الآفاق والأنفس والهداية من أجل التّرقّي المعرفي والرّوحي والسّلوكي والعمراني في عالم الشّهادة."[1]

ومن الغريب فعلاً أن نجد أحد المفكّرين ينشئ كتاباً بعنوان"التّفسير القرآني للتّاريخ"[2] ولا يتحدّث فيه إلاّ عن عنصر واحد من عناصر ومكوّنات الحضارة وهو الأشياء فعرض فقط الجوانب المادية من الأرض والاقتصاد والثّروة والعمل، بينما أهمل الجوانب المعنويّة التي يسمّيها ابن خلدون بالوازع الدّيني، ويسمّيها مالك بن نبي بالفكرة الدّينية، والتي لا تغني عنها الجوانب المادية بأيّ حال من الأحوال في الاجتماع العمراني والشّهود الحضاري، قال تعالى: **"مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ اَوُ انْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً"**(النّحل:97).

ففي الآية يوجد بيان لمكانة الوازع الدّيني في تفعيل مكوّنات الحضارة، فالإنسان الذي يعمل صالحاً وهو المؤمن بالعقيدة والفكر، وهو من ارتقى بوازعه الدّيني النّابع من الإيمان بالله تعالى والتّصديق بقوانينه وتقديراته الكونية والشّرعية يمكن له تفعيل تلك المسخّرات الكونية وذلك بالعمل الصّالح الذي يوصل الإنسان إلى أن يعيش عيشة هنيّة ويصل إلى الحياة الطّيّبة اللاّئقة به وهو ما نسمّيه بالحضارة والتّقدّم والمدنيّة والعمران وغيرها.

وقبل أن نبدأ في تفصيل العلاقة بين مقصد الوازع الدّيني ومكوّنات الحضارة، نشير إلى هذه المكوّنات باختصار فنقول:

أ-الإنسان: وهو المؤهّل للقيام بالدّور الحضاري المطلوب، وينبغي أن يكون معدّاً نفسيّاً وّأخلاقيّاً ليتحمّل المسؤوليّة المناطة به، ويدخل في عنصر الإنسان الزّمان باعتبار الإنسان حقيقة زمانية لا تنفصل عن الزّمان، ووجوده وجود زماني بدرجة كبيرة.

ب-فكر: وهو الذي يقود خطوات الإنسان ويلهمه ويدفعه إلى التّضحية والإيثار، وقد يسمّى هذا الفكر عند البعض بالعقيدة ويسمّيه آخرون بالثّقافة، أو الجانب المعنوي بالحضارة.

ج-الأشياء: وهي المواد الخام أو المسخّرات الكونية المادية التي يبرز من خلالها الإنسان فكره، وقد يسمّي بعضهم هذه الأشياء بالجانب المادي في الحضارة، أو يطلق عليه بعضهم اسم (المدنيّة) ، ويسمّيها بعضهم (الأرض والتّراب)[3].

2-الإنسان ومقصد الوازع الدّيني.

---

[1]-بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دمشق، دار الفكر، 2000، ص49.

[2]-كتاب"التّفسير القرآني للتّاريخ" للدكتور راشد البداوي، القاهرة، دار النّهضة العربية، ط2، 1967.

[3]-بن نبي مالك، شروط النّهضة، ترجمة مسقاوي وشاهين، دمشق، دار الفكر، ط2، 1969، ص113-114.

لقد حظي الإنسان بكثير من الاهتمام في الشّريعة الإسلامية ونصوصها، وقد كان من أولويات القرآن الكريم بناء الإنسان وغرس الإيمان في قلبه وتقوية الوازع الدّيني في ذاته من أجل القيام بالمهمّة الحضاريّة المنوطة به، وهي الاستخلاف والتّعمير والتّشييد، فقال تعالى: **"وَعَدَ اللهُ الذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم في الأَرْضِ"**(النّور:53).

فهذا وعد الله تعالى للمؤمنين أنّهم إن عاشوا على مقتضى إيمانهم وصدر منهم العمل الصّالح المثمر فسوف ينالون الخلافة في الكون وهي ما نعني به الحضارة والعمران.

فالإنسان على ما عنده من مسخّرات كونيّة هيّأها الله له ومنّ بها عليه فإنّه لا يستطيع تشييد حضارة صحيحة ونافعة إلاّ إذا حافظ على عبوديّته لله تعالى والالتزام بمنهجه،فإذا ارتكس وسار في طريق الانحراف والضّلال فإنّه يهبط إلى أسفل سافلين.

ومن هنا نفهم أنّه من مقاصد القرآن الكريم رعاية الوازع الدّيني في قلوب الخلق حتّى تقوم الإنسانية بحضارة سليمة، وحتّى لا ينحدر الإنسان المخلوق المكرّم إلى الحضيض.

ولقد لفت القرآن الكريم نظر الإنسان إلى حقيقتين عظيمتين تذكّرانه بأنّه لابدّ أن يعيش ونظره إليهما ليعرف جوهره، ويدرك مهمّته ووظيفته في الحياة.

فأمّا الحقيقة الأولى فتتمثّل في أصل خلقه، وأنّه مخلوق ضعيف وأصله الأوّل من تراب ومن سلالة من ماء مهين، والشّأن فيه إن طالت به الحياة أن يعود إلى أرذل العمر، فلا يعلم من بعد علم شيئاً، وأمّا الحقيقة الثّانية فهي أنّ الإنسان هو ذاك المخلوق المكرّم على سائر المخلوقات الأخرى، وأنّه ذاك الذي استأهل أن يأمر الله الملائكة بالسّجود له ممثّلاً في أبيه آدم-عليه السّلام-، وأنّه الذي شرّفه الله بالخلافة فوق هذه الأرض، وأنّه الحيوان الوحيد الذي جهّزه الله بإشراقات العقل والتّفكير.

وهاتان الحقيقتان تنتظمان في هويّة واحدة للإنسان، لأنّ رجل الحضارة الإنسانية في مقاصد القرآن الكريم هو الذي ربّي في ظلال التّنبّه إلى هاتين الحقيقتين معاً، والذي ينبّهه إلى ذلك هو وازعه الدّيني الذي يهديه إلى التّوسّط في ذلك فلا تتملّكه السّلبية جرّاء النّظر إلى ضعفه وهوانه، ويكون بذلك عبأً على الحياة غير مشارك في عمارتها وحضارتها لأنّه يرى في نفسه عدم التّأهّل لخدمة ذلك المقصد، ولا يطغى عليه النّزوع إلى التّسلّط والتّجبّر بحكم نظره إلى تكريمه وتفضيله فيبسط قهره على سائر المستضعفين فيكون ذلك عائقاً في وجه التّنمية والتّحضّر[1].

وتلك هي آفة الحضارات التي نقرأ عنها في بطون كتب التّاريخ، أو نرى بقاياها في جنبات الأرض، وتلك هي قصّة الفساد أو الإفساد التي يكرّر القرآن الحديث عنها والتّحذير منها، فالحياة لم تفسد في يوم من أيّام تاريخها بعادية من عوادي الطّبيعة ولا بهيجان من الحيوانات المفترسة المتوحّشة،

[1]-البوطي محمد سعيد رمضان، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن الكريم، كتاب الأصالة، مرجع سابق، ج4، ص114-115.

ولكن استشرى فيها الفساد يوم تاه بنوا آدم عن هوياتهم وواقع أحوالهم، فتألّه الأقوياء وذلّ الضّعفاء، وخرج بذلك كلّ فريق عن حدود إنسانيّته، ولا يمكن أن تعود الحضارة إلى سالف عصرها وجميل منظرها ومعالي أهدافها إلاّ يوم يقوى وازع الإيمان والاهتداء بهذه الحقائق القرآنية.

3-الفكرة أوالمنهج ومقصد الوازع الدّيني.

لا يمكن أن تنجح حركة أو دعوة أو عمل ما إلاّ بتحقيق الوسائل التي تدفعها إلى الظّهور وتجنّبها الضّمور والخفاء، والحضارة الإنسانية الحقّة هي الحضارة التي تنبني على أساس منهج سليم واعٍ ناتج من منتجاتها التي تصنعها، وكلّ اسيراد للمنتجات أو المعالم أو المناهج أو الأفكار سوف يؤثّر في سيرها ونجاحها وظهورها، وفي ذلك يقول مالك بن نبي:"...الحضارة هي نتاج فكرة حيّة تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التّحضّر، الدّفعة التي تجعله يدخل التّاريخ فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري والثّقافي طبقاً للنّموذج المثالي الذي اختاره، وعلى هذا تتأصّل جذوره في محيط ثقافي أصيل تتحكّم بدوره في جميع خصائصه التي تميّزه عن الثّقافات الأخرى والحضارات الأخرى."[1]

فالحضارة إنّما تشيّد من خلال ما يحمله الإنسان من عقيدة وفكر، فيشغّل بها التّراب الذي يكتنز مختلف ضرورات الحياة كما يستغلّ عامل الوقت بتحويله إلى ساعات عملٍ وإنتاج، فمشكلة الحضارة والتّخلّف والجهل والتّبعيّة لا نعالجها باستيراد منتجات حضارة قائمة، بل نعالجها بحلّ مشكلات الإنسان والتّراب والوقت من خلال استعمال الفكرة أو المنهج وفقاً للعقيدة والفكرة التي يحملها والوازع الدّيني والإيماني الذي يدفعه.

ويجب أن يكون منهج الحضارة مبنيّاً على أساس معرفة علاقة الإنسان بخالق الكون، ثمّ علاقته بالكون في ذاته، ثمّ علاقته بأخيه الإنسان، وهذا يدعو إليه القرآن، ويتقصّد إيجاده في الحياة وهو الوازع الإيماني والدّيني الذي يحمي تلك العلاقات ويعزّزها ويفعّلها في الواقع.

فعلاقة الإنسان بالإنسان مبدؤها التّعاون والمحبّة والأخوّة والتّواصل والتّكافل والتّراحم وهي أخلاق تستغرق حيّزاً كبيراً في دعوة القرآن الكريم ونصوصه وتشريعاته.

وعلاقة الإنسان بالكون مبدؤها ومنتهاها الوازع الدّيني في قلب الإنسان الذي يؤمن بأنّ الكون وما فيه إنّما هو مسخّر من قبل الله تعالى له ليستثمره ويحسن استغلاله فيما يعود عليه وعلى الكون وعلى سائر المخلوقات بالنّفع والصّلاح.

وأمّا علاقة الإنسان بخالق الكون فمنطلقها العبادة، ومبناها العبوديّة والخضوع والاستسلام لله تبارك وتعالى، ومنهجها إرضاء الله تعالى في كلّ ما يباشره من عملٍ وأداءٍ كوني.

فإذا روعيت هذه العلاقات وتأسّست على مقتضى الوازع الدّيني والإيماني الصّحيح الذي دعا

---

[1]-بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص49.

إليه القرآن الكريم تحقّق الإقلاع الحضاري للأمّة الإسلامية من جديد، فتلك العلاقات هي الرّصيد المخزون للأمّة عندما تفقد الأشياء، فالفكرة الإسلامية المبنية على أساس الوازع الدّيني هي التي أطلقت قطار الحضارة الإسلامية، وضمنت له الاضطراد في التّاريخ، وكان الإنسان المسلم المعبّأ بهذه الفكرة وذلك الوازع هو المنشأ لتلك الحضارة الشّامخة وذلك العمران الهادف.

ولقد مرّت بالأمّة الإسلامية هزائم كثيرة وتعرّضت لصنوف من الاحتلال التّتري والصّليبي والاستعماري، لكنها استطاعت تجاوز المحنة بفضل الله تعالى ثمّ بفضل الفكر الذي كان يقودها والذي تأسّس على الإيمان الصّحيح، ومن هنا كان تركيز الحملات الاستعمارية والاحتلالية في هذا العصر على ذلك الوازع وضربه في العمق عن طريق الإباحية والعلمنة والغزو الفكري والثّقافي وإماتة الإسلام في قلوب أتباعه[1].

4-الأشياء أو المسخّرات الكونية ومقصد الوازع الدّيني.

إنّ قيمة الأرض في الإبداع الحضاري قيمة لا تنكر، فهي مناط الزّراعة، والفلاحة والبناء والعمران، وبقدر ما يستطيع الإنسان استغلال الأرض الاستغلال الأمثل، وتطوير عطائها وتوجيهه بقدر ما يستطيع إبداع حضارة إنسانيّة موجّهة.

والأمثلة في ذلك كثيرة، فتقهقُر الحضارة في كثير من بلدان عالمنا المعاصر إنّما هو نتيجة التّخلّف في وضع مناهج علمية من أجل استغلال الأرض واستصلاحها لتوفير الإنتاج، أو نتيجة لقهر القوى الاستعمارية لبعض الدّول العربية والإسلامية فنفرض عليها عدم زراعة القمح بصورة تحقّق بها الاكتفاء الذّاتي، فضلاً عن الوصول إلى التّصدير، وتبقى الأراضي في العالم الإسلامي في مرحلة بدايته الاستغلال بينما يزرع الياباني الأراضي فوق الجبال، ويزرع الشّخص الأمريكي وحده ألف هكتار في حين تظل الدّول المستعمرة(وإن حملت اسم الاستقلال) ممنوعةً من تطوير زراعتها[2].

إذا كانت الأرض والتّراب بتلك الأهمّية في سلّم معايير الشّهود الحضاري، فإنّ الأمة الإسلامية عندها من الرّصيد التّشريعي والنّصّي ما يؤهّل للاستغلال والعمل والإنتاج فقد جاء القرآن يخاطب المسلمين بمقتضى الإيمان الذي يحملونه وبمقتضى وازعهم الدّيني ليحثّهم على العمل وعلى الاستغلال الأمثل للأرض وعلى الصّيد والزّراعة والصّناعة والتّجارة وغيرها.

فالحضارة إنّما تقوم باستغلال مسخّرات الكون استغلالاً نابعاً من الوازع الدّيني والإيماني الذي يقود الإنسان ويضيء له منهج الاستفادة من تلك الثّروات والمسخّرات.

---

[1]-حسنة عمر عبيد، في النّهوض الحضاري، مرجع سابق، ص57-58.

[2]-عويس عبد الحليم، الظّاهرة الحضاريّة في القرآن والسّنّة، مجلّة البحوث الإسلامية الرّئاسة العامة للإدارة والبحوث العلمية والإفتاء والدّعوة والإرشاد، الرياض، العدد21، (1408هـ)، ص165.

ومن الغريب الجدير بالذّكر أنّ عوامل ميلاد الحضارة أو بنائها هي كذلك عوامل سقوطها، فعندما ينحلّ الإنسان ويضعف الوازع الدّيني لديه ويفقد تبعاً لذلك الرّؤية الصّحيحة للحياة يتحوّل هو نفسه-بالظّلم والتّرف وغلبة الغريزة-إلى عامل هدم لنفسه ولمجتمعه وحضارته، وتتوارى الفكرة الصّائبة وتحلّ محلّها الفكرة النّفعية التّبريريّة، وفي النّهاية تطغى الأشياء وتصبح هي السّمةالحضاريّة الطّاغية، بل ينظر إليها من خلال مظاهر التّرف والاستمتاع على أنّها هي الحضارة[1].

ولذلك نجد مالك بن نبي يرسم لنا المنحنى البياني لميلاد الحضارة ونموّها وازدهارها واستقرارها ثمّ انحطاطها وانهيارها، فيقسّم الأطوار التي تمرّ بها الحضارة إلى ثلاثة أطوار، الأوّل: هو الطّور الذي تروّض فيه الغرائز وتسلك في نظام خاص يكبح فيه جماحها وتتقيّد وتنطلق، والثّاني: هو منعطف العقل لا يملك سيطرة الرّوح على الغرائز، وحينئذٍ تشرع هذه الغريزة في التّحرّر من قيودها، وتأخذ الرّوح في فقدان نفوذها على الغرائز بالتّدريج، والثّالث: عندما يبلغ هذا التّحرّر تمامه يبدأ الطّور الثّالث من أطوار الحضارة، طور الغريزة التي تكشف عن وجهها تمامًا، وهنا تنتهي الوظيفة الاجتماعيّة للفكرة الدّينيّة التي تصبح عاجزةً عن القيام بمهمّتها تماماً في مجتمع منحلّ يكون قد دخل نهائيّاً في ليل التّاريخ[2].

ومن خلال ذلك نعرف أنّ مقصد الوازع الدّيني عامل أساسيّ في استثمار عناصر الحضارة والعمران البشري، فعناصر الحضارة لن تجدي نفعاً إذا لم يكن الجامع بينهما هو فكرة الوازع الدّيني الذي يسيطر على روح الفرد وحياة الأمّة، وبذلك يظلّ هذا العامل هو المتحكّم في سيرها التّاريخي، وهذا ما يؤكّده مالك بن نبيّ أيضاً حيث يقول:"فالحضارة لا تنبعث إلاّ بالعقيدة الدّينيّة، والحضارة لا تظهر في أمّة من الأمم إلاّ في صورة وحي يهبط من السّماء، يكوّن للنّاس شرعة ومنهاجاً...فكأنّما قدّر للإنسان ألاّ تشرق عليه شمس الحضارة إلاّ حيث يمتدّ نظره إلى ما وراء حياته الأرضية."[3]

ولأنّ الفكرة الدّينية والوازع الدّيني الإيماني يبثّ في روح معتنقيه الأخلاق الرّفيعة، ومن بلسم روحه تنتشر وتنبعث حياة المجتمع المتطوّرة، فإذا فقدت الأخلاق تحرّرت الغريزة وهنا تنتصر الهمجيّة وتتقوّى وبذلك تطلق العنان إلى سقوط الحضارة على إثر تحرّر الغرائز.

---

[1]-المرجع السّابق، ص171.

[2]-بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص54.

[3]-بن نبي مالك، شروط النّهضة، مرجع سابق، ص75.

رابعاً: دور مقصد الوازع الدّيني في الحركة الحضارية والعمرانية.

1-دور مقصد الوازع الدّيني في كشف النّعم وحسن استثمارها.

لا شكّ أنّ معرفة السّنن المادّية والكشف عنها من أسباب نهوض الحضارات وسرّ دوامها، وحسن استثمارها ينطلق من أسس الوازع الدّيني باعتباره مقصد قرآنيّ يهدف إلى تحقيق ذلك، ويمكن أن نلخّص توجيه القرآن الكريم للوازع الدّيني من أجل معرفة واستكناه المقدّرات والمسخّرات الكونية والمحافظة عليها وصيانتها في النّقاط التّالية:

أ-اليقين بأنّ الكون كلّه ملك لله تعالى: وإلى هذه الحقيقة أشارت آيات كثيرة، قال تعالى: "أَلَمْ تَعْلَمَ اَنّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَ الاَرضِ" (البقرة: 106)، فهذه الآية وما في معناها تقرّر أنّ كلّ ما في الكون إنّما هو من فيض الله تعالى وهو في حقيقته ملك له سبحانه، وأنّ الإنسان لا يملك منها شيئاً إلاّ المنفعة، وملكيته مجازيّة اعتباريّة وليست حقيقيّة، وهذه الحقيقة تقوّي الوازع الدّينيّ الإيمانيّ حتّى يضع كلّ شيء في موضعه من خلال تحقيق غرضين هما[1]:

-نفي الغرور عن قلوب النّاس حين يحوزون على الأموال ويكتشفون النّعم والمسخّرات الكونيّة، ويسعون للحصول على الثّروات، فإنّ الغرور ناتج عن ضعف الوازع الدّيني، وضعف الإيمان، وقلّة اليقين بأنّ الملك لله تعالى على الحقيقة، وهذا لعمري مصدر كلّ شرّ يقع في الحياة والمجتمع، فيفسد الحضارة ويهلك العمران، فإذا تذكّر الإنسان المؤمن أنّ مالك الملك هو الله تعالى وحده اطمأنّت نفسه، وقلّ غروره، ولذلك يذكّر الله عباده دوماً بافتقارهم إليه.

-معرفة هذه الحقيقة تجعل النّاس يلتزمون بالقانون الشّرعي في تملّك الثّروات طبقاً لما يريده المالك الحقيقي وهو الله تعالى، وبناءً على هذا فإنّ المعرفة بهذه الحقيقة ستجعل الإنسان يقدّر النّعمة ويحترمها، ويؤدّي شكرها لأنّه مفوّض فيها وموكّل، ولا يفسد في الكون، لأنّ هذه النّعم ليست ملكه في الحقيقة، والانتفاع بها ليس وفقاً لما يريده هو، ولا هي له وحده وإنّما لكلّ بني آدم.

وهذه الأمور إنّما يغذّيها الوازع الدّيني الذي قصد القرآن الكريم تحصيله من وراء معاني الآيات الكثيرة، من أجل بناء حضارة إنسانية متكاملة، وتعايش إنساني بين بني البشر مبنيّ على العدل والرّعاية والاحترام.

ب-ذكر الله في الضّمير عند استقبال النّعم: فمن السّنن المعنويّة التي تتمّ بها بركة النّعم والثّروات أن ينسجم الإنسان مع الكون في الذّكر والتّسبيح، وذكر الله عند استقبال نعمه إنّما هو شكرها وهو سبب زيادتها ونمائها، قال تعالى: **"لَئِنْ شَكَرْتُم لَأَزِيْدَنَّكُم"**(إبراهيم:9)، وذكر الله تعالى ليس ذكراً

[1]-شلبي رؤوف، الدّعوة الإسلامية في عهدها المكّي، دار الفجر، د.ت، ص369.

باللّسان فحسب، وإنّما هو الخضوع لصاحب النّعمة الذي مكّن للإنسان وهداه إلى قانونها، ونستطيع أن ندرك أثر هذا الذّكر في حياة الصّالحين الذين اجتهدوا في أداء واجب شكر النّعم، إذا قرأنا قصّة ذي القرنين في القرآن الكريم، حينما صنع السّد ثمّ قال هذا رحمة من ربّي، ولم ينسب التّوفيق لنفسه، ولم تُنسه سطوة القوّة والقدرة قدرة الله تعالى، فوصل إلى صناعة السدّ الذي يعتبر مظهراً حضاريّاً عجيباً، وإذا قرأنا أيضاً قصّة صاحب الجنّتين المثمرتين بكلّ أنواع الفاكهة والزّرع، ولكنّه لم يؤدّ واجب الشّكر فأصبحت أثراً بعد عين.

وما أكثر النّماذج التي ذكرها القرآن الكريم والتي منها تستفاد كيفية استقبال النّعم وأثر ذلك الوازع في تنميتها، وذلك في قصّة يوسف–عليه السّلام– وفي قصة سيّدنا سليمان–عليه السّلام–، كما أشار القرآن إلى النّماذج السّيّئة التي غفلت عن صاحب النّعم وواهبها وانقطعت صلتها به مثل قارون الذي زعم أنّه أوتي الملك والنّعم على علم عنده، فكانت العاقبة أن خسف الله به وبداره الأرض[1].

ج–تقوى الله وعلاقتها بكشف النّعم واستثمارها: لقد أكّد القرآن الكريم على أنّ التّقوى– باعتبارها من مقوّمات الوازع الدّيني–لها أثر في نماء النّعم وبركتها التي هي مظهر من مظاهر الحضارة بل الحضارة تتوقّف عليها، وذلك في العديد من المواضع، والتّقوى وازع في النّفس تجعل صاحبها يحذر من أنواع الفساد والمعاصي التي تجلب غضب الله تعالى وتعرّض لعقابه، وفي مجال كشف النّعم واستثمارها تأتي التّقوى باعثة على استثمار النّعم وعدم إهمالها، وذلك لأنّ إهمالها وتعطيلها نوع من أنواع الفساد ناتج عن ضعف الوازع الدّيني.

فتقوى الله تعالى والاستقامة على منهجه باعثة على الاستفادة من النّعم الكونية وعدم تعطيلها، وهي أيضاً دافعة إلى العمل والإخلاص فيه، والمؤمنون المتّقون هم الذين يأخذون بالأسباب ويجتهدون في أن يكونوا دائماً على طريق العمل الصّالح مسلّحين بالتّوكّل على الله تعالى، معتصمين بمكارم الأخلاق آخذين بسنن الله في نعمه، لذلك يبارك الله جهدهم في الدّنيا ولا يضيع أجرهم في الآخرة.

د–الوازع الدّيني والمحافظة على البيئة: إنّ العالم اليوم مشغول بقضية البيئة، والإسلام بمنهجه الرّبّاني ليس بعيداً عن هذا الموضوع بل هو من مقاصده، لأنّه يعتبر صحّة البيئة من صحّة الإنسان، وفسادها من فساد الإنسان، لكون المحافظة عليها من عوامل البناء الحضاري ومن أسباب العمران البشري، ولذلك فقد اتّخذ القرآن الكريم أساليب عديدة يُلفت من خلال نظر الإنسان إلى المحافظة عليها والاجتهاد في إصلاحها ونظافتها، لأنّها محلّ لإقامة حضارته، ومكان لمزاولة فريضة الخلافة التي كلّف بها، ويمكن أن نعتبر رعاية الوازع الدّيني والإيماني من بين تلك الأساليب التي قصدها القرآن الكريم

[1]–علي محمد عبد الوهّاب، حضارة ودين، المحمّدية، دار الطّباعة، ط1، 1991، ص53، ومحمود محمد سفر، دراسة في البناء الحضاري، كتاب الأمّة، العدد21، (1989)، ص115.

في ذلك.

ويتسامى الفكر الإسلامي وحضارته عندما يقرّر أنّ الله خالق الوجود طيّب لا يقبل إلاّ طيّباً، ونظيف يحبّ النّظافة، وجميل يحبّ الجمال.

2-دور مقصد الوازع الدّيني في ترشيد العمل والإنتاج.

لقد عدّ الإسلام العمل من أساسيات الحياة وضروراته، والعمل في منظور الإسلام هو كلّ جهد عضليّ أو ذهنيّ يبذله الإنسان بهدف إيجاد منفعة أو مصلحة، وأمّا الإنتاج فهو خلق منفعة جديدة في شكل سلعة، أو تكوين ثروة قادرة على إشباع حاجة أو أكثر من حاجات الإنسان[1].

وعليه فالعمل والإنتاج كلاهما من مظاهر الرّقي والحضارة وقد جاء الإسلام بمراعاتها وإقامتها على أسس رشيدة، وقد استعمل القرآن الكريم أساليب متعدّدة من أجل ترشيد العمل والإنتاج كما أكّد أنّ الوازع الدّيني هو الكفيل بذلك ويمكن تلخيص ذلك في النّقاط التّالية:

أ-اختيار العمل النّافع المثمر: لن تقوم الحضارة الحقّة إلاّ بالكسب الطّيّب والعمل النّافع المثمر الذي يكون في مصلحة الفرد والمجتمع، ولم يحرّم الإسلام إلاّ ما يكون من العمل ناتجاً عن ضعف الوازع الدّيني لأنّه سوف يضر بالآخرين، وبالفرد وبالأمّة، ويهدم الحضارة والعمران، فحرّم الإسلام العمل في تجارة بيع الأصنام والخمر، وغيرها ممّا حرّمته الشّريعة لأنّها أعمال غير مثمرة وليست نافعة، بل أعمال تحدث تنافراً بين أفراد المجتمع، وتبديداً للطّاقات ضرباً للانسجام بين الإنسان والكون فيقع الفساد والدّمار والحرب، وكلّها مذهبة للحضارة وفاتكة بالإنسان.

ب-بذل الطّاقة في سبيل الإجادة والإتقان: إذا تمّ اختيار العمل الصّالح والمباح والنّافع فإنّه لا يمكن أن يؤتي ثمرته ولا أن يصنع حضارةً إلاّ إذا كان القائم به جادّاً ومتقناً ومخلصاً فيه، ومستشعراً المسؤولية الملقاة على عاتقه، وهذا قطعاً يتعلّق بمقدار ما في القلوب من وازع دينيّ، وهكذا يأتي العمل مقروناً بالصّلاح في آيات كثيرة من كتاب الله لهذا الغرض[2].

ج-الالتزام بأخلاقيات العمل: وهو واجب يفرضه الشّرع وتحتّمه الضّمائر ويوجّه إليه الوازع الدّيني، فالعامل الذي ينشد الحضارة لابدّ وأن يلتزم بأخلاقيات العمل التي دعا إليها الإسلام من الصّدق والوفاء بالعقود وأداء الأمانة في العمل وغيره على الوجه المطلوب والشّكل المرغوبوقد جعل القرآن الكريم من مقاصد الوازع الدّيني أن يلزم المؤمن بالاستجابة إلى أخلاقيات المهنة أو العمل الذي يزاوله، وإلاّ فهو في عداد الخائنين للأمانات، وبذلك تمحق البركات، وتنهار الحضارات.

د-الالتزام بأوقات العمل: فقد اعتبر القرآن الكريم الوقت والزّمن نعمة كبرى وواجب على المسلم

---

[1]-البهي الخولي، الاشتراكية في المجتمع الإسلامي بين النّظرية والتّطبيق، القاهرة، مكتبة وهبة، د.ت، ص108.

[2]-أبو زهرة محمد، التّكافل الاجتماعي في الإسلام، دار الفكر العربي، د.ت، ص44.

أن يحافظ عليه، وأن يستفيد منه، ليكون عوناً له في البناء الحضاري والرّقي العمراني، وإذا كان الوقت بهذه الأهمّية وهذه المكانة في القرآن الكريم فأحرى بالعامل أن يحرص كلّ الحرص عليه، لأنّه بقدر تبديد الوقت وإضاعته في اللّهو يكون ضعف الإنتاج وفقر الأمّة وتأخّرها عن ركب التّنمية والتّقدّم والحضارة والعمران، ولعلّ في زمننا هذا أنّ ما نلاحظه من إضاعة للأوقات من أغلب المسلمين في دوامهم الرّسمي في أمور لا فائدة فيها، ودخول بعد الوقت وخروج قبل نهاية الدّوام وغير ذلك من السّلوكات المنافية لمقصد الوازع الدّيني كلّ ذلك من أسباب الانهيار الحضاري[1].

3-ضعف الوازع الدّيني تعطيل لحركة الحضارة وتعطيل لبناء العمران.

لقد اخترت أن تكون هذه النّقطة آخر ما أخطّه في هذا البحث لكي تكون من جهة خلاصةً للبحث ونتيجة له، ومن جهة أخرى إثباتاًلأهمّيّة البحث في موضوع الوازع الدّيني ومكانته في بناء الحضارة والعمران وقد لفت نظري كلام كثير من المفكّرين عن ذلك فنقلت أمثلة لها، فقلت قبلها:

الحضارات في منظور الإسلام تسقط بسبب فساد الوازع الدّيني وانتشار الرّذيلة والفواحش والآثام على مستوى الفرد أو الجماعة، قال تعالى:**"وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتَ اَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَاتِيْهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍفَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوْعِ وَ الخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُون"**(النّحل: 112)، ويوضّح القرآن الكريم أنّ رعاية الوازع الدّيني من عوامل النّهوض الحضاري كما سبق معنا في محاور البحث السّابقة؛ فيمكن لنا يقيناً من خلال ما ذكر أنّ نقول أنّ الوازع الدّيني أساس في نظرة الإسلام للشّهود الحضاري، وأنّ التّعاليم الدّينية لا تؤتي أكلها ولا يكون لها أثر في الحياة الفردية والمجتمعيّة إلاّ إذا كان الوازع الدّيني قويّاً، أمّا إذا مات الوازع الدّيني في الضّمائر وتلاشى الإيمان من الأفئدة، فقد فقدت الغاية التي تكدح الأمّة لبلوغها وهي الإقلاع الحضاري والبناء العمراني، فمن المستحيل أن تنهض أمّتنا بلا دين ولا إيمان، إذا لا تتوفّر بدونهما مشاعر الرّحمة وعناصر الأمانة، ومقوّمات الفضيلة، وما قيمة حضارة لا تعتمد على الإيمان ولا يحصّنها خلق ولا يشدّها مثل أعلى[2].

وفي القصص القرآني فقه حضاري غاب عن أذهنة المسلمين فلم يفقهوه حقّ الفقه، إذ سرد لنا القرآن عدداً من التّجارب البشريّة التي دخلت مسيرتها إلى مرحلة الذّنوب والآثام وفساد الوازع الدّيني فكانت العاقبة وخيمة، الخسف والإغراق...وغيرها، فانهارت حضاراتهم بسبب ذلك، قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، فالسّلوك الأخلاقي المنحرف هو الطّريق للانهيار الحضاري والعمراني، وليس فقط الضّعف المادي والتّقني هو الذي يقود إلى ذلك، فالأخلاق القائمة على أساس عقدي

---

[1]-القرضاوي يوسف، الوقت في حياة المسلم، مكتبة وهبة، ط4، 2004، ص16.

[2]-عويس عبد الحليم وآخرون، موسوعة الفقه الإسلامي المعاصر، مصر، دار الوفاء، ط1، 1426هـ/2005م، ج3، ص504.

وفكري سليم–وليس الأخلاق النّفعية– هي الطّريق الصّحيح للحضارة، ولقد أشار ابن خلدون إلى ذلك وذكر أنّ رقي الأمم لا يتحقّق بتوافر القوّة المادّية أو رقي العقل فقط وإنّما لابدّ من توافر الأخلاق الحسنة[1].

ولقد فقه هذا محمد عبد الله دراز فقال:"فالذي نريد أن نثبته في هذه الحلقة من البحث هو أنّه ليس على وجه الأرض قوّة تكافئ قوّة التّديّن أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه...السّرّ في ذلك أنّ الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحيّة بأنّ حركاته وتصرّفاته الاختيارية يتولّى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعه ولا بصره، ولا يوضع في يده ولا عنقه ولا يجري في دمه، ولا يسري في عضلاته وأعصابه، وإنّما هو معنى إنساني روحاني اسمه الفكرة والعقيدة، ولقد ضلّ قوم قلّبوا هذا الوضع وحسبوا أنّ الفكرة والضّمير لا يؤثّران في الحياة المادية والاقتصاديّة بل يتأثّران بها، هذا الرّأي الماركسي هو قبل كلّ شيء نزول بالإنسان عن عرش كرامته، ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية، ثمّ هو تصوير مقلوب للحقائق الثّابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كلّ عصر...أجل إنّ الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق، وتؤدّى الواجبات على وجهها الكامل فإنّ الذي يؤدّي واجبه رهبة من السّوط أو السّجن أو العقوبة المالية، لا يلبث أن يهمله متى اطمأنّ إلى أنّه سيفلت من طائلة القانون.

ومن الخطأ البيّن أن نظنّ أنّ في نشر العلوم والثّقافات وحدها ضماناً للسلام والرّخاء، وعوضاً عن التّربية والتّهذيب الدّيني والخلقي، ذلك أنّ العلم سلاح ذو حدّين يصلح للهدم والتّدمير كما يصلح للبناء والتّعمير، ولابدّ في حسن استخدامه من رقيب أخلاقي يوجّهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض لا إلى نشر الشّرّ والفساد، ذلكم الرّقيب هوالإيمان."[2]

ثمّ يقول:"من أجل ذلك كان التّديّن خير ضمان لقيام التّعامل بين النّاس على قواعد العدالة والنّصفة، وكان لذلك ضرورة اجتماعيّة كما هو فطرة إنسانية، وأنت فهل عسيت أن يخالجك شيء من الشّكّ في مدى حاجة الجماعة إلى ازدهار هذا الرّوح الدّيني فيها؟وهل غرّك أنّ دولاً كبيرةً أسّست نهضتها في عصرنا هذا على غير الدّين؟ وقد استتبّ النّظام فيها ومكّن لها في الأرض؟ إنّنا لا نريد أن نسبق الحوادث، وأن نتنبّأ بمصير هذا البنيان الذي أسّس على غير تقوى من الله ورضوان."[3]

ويقول محمّد فريد وجدي –في الفكرة ذاتها–:"وقد شهدت تواريخ العالم كلّه أنّ الأمم ما

---

[1]–ابن خلدون، المقدّمة، مرجع سابق، ص19.

[2]–دراز محمّد عبد الله، الدّين، مصر، المطبعة العالميّة، د.ت، ص98–99.

[3]–المرجع السّابق، ص100.

تـدرّجت في مـدارج الحضـارة ولا اجتـازت عقبـات الحيـاة الوحشـيّة إلاّ والـدّين قائـدها ومرشـدها، كمـا شهدت أيضاً بأنّ تهالك الإنسان في احترام الدّين وتفانيه في حبّه قد بلغ عنده حدّاً ضحّى معه بالنّفس والولد والأهل، ذلك لأنّه يبحث عن الطّمأنينة النّفسية والرّاحة القلبية ولا طمأنينة إلاّ في سعادة الرّوح بوجود الدّين، ففي وجوده وجود كلّ شيء وفي فقده فقد كلّ شيء."[1]

الخاتـمة:

وفي ختام هذا البحث الذي نزعم أنّنا قد طوّفنا قدر الإمكان من خلاله في بيان مفهوم الوازع الدّيني، وإثبات مقصديّته القرآنية من خلال كلّيات كثيرة واردة في القرآن دلّت عليها جملة من الآيات، ثمّ عرضنا أثر مقصد الوازع الدّيني في النّهوض بالمجتمع الإسلامي نهوضاً حضاريّاً وعمرانيّاً، وأنّه يعتبر من أهـمّ عوامـل بنـاء الحضـارة الإنسـانية والعمـران البشـري، وأنّ أسـس مقصـد الـوازع الـدّيني الـتي ترجـع إلى الإيمان بالله والتّربية الإسلامية والوسطيّة المنهجيّة في ذلك لها بالغ الأثر في الاستفادة من الموروث البشري الحضـاري عـبر التّـاريخ، وأنّ المسـلم لا يـدير ظهـره إلى مـا وصـلت إليـه الشّـعوب مـن حولـه مـن حضـارة وعمران وإنّما يسلّط عليها مقصد الوازع الدّيني ليصفّي ما يخدمه ويترك ما قد يكون سبباً في ضعفه أو انهياره، وعليه يكـون الـوازع الـدّيني محفّـزاً إلى التّحـرّر والانفتـاح على الحضـارات الأخـرى تمامـاً كمـا كـان المسلمون سادةً وقادةً في أزمان أوج حضارتهم.

كما عرضنا علاقة مقصد الوازع الدّيني بقيم الحضارة وعناصرها من الإنسان والأشياء والفكرة أو المنهج، وأنّه لابدّ من الفكرة الدّينيّة من أجل استكشاف المسخّرات الكونية والنّعم الإلهيّة، وترشيد استعمالها والاستفادة منها، عن طريق العمل والإنتاج الذي يزدهر إذا كان منطلقاً ومرتكزاً وعائداً إلى مراعاة مقصد الوازع الدّيني وتفعيله في جميع مجالات الحياة.

ومن التّوصيات التي يمكن الإشارة إليها في الختام ما يلي:

1-التّركيز على أهمّيّة الأخلاق والوازع الدّيني في النّهوض والشّهود الحضاري، ويجب أن نتصوّر هذه الحضـارة الغربيـة الـتي وصلت إلى مـا وصـلت إليـه مـن إنجـازات واكتشـافات إذا أضـيف لهـا الـوازع الـدّيني، وأمكن تفعيله، فكيف يكون مستواها ورقيّها ونفعها للبشريّة وللعمران عن طريق البناء الرّوحي المعنوي والمادّي الحسّي.

2-استعمال كـلّ الإمكانـات التّعليميّـة والتّربويّة والإعلاميـة مـن أجـل تقريـر مقصـد الـوازع الـدّيني ورعايته والتّنبيه من خلال ذلك على تأسيس العمل الحضاري على وفقه لضرورته في المجال الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثّقافي والصّناعي والتّجاري، وكلّ المعاملات التي تكون بين النّاس مهما كانت

[1]-وجدي محمد فريد، الإسلام في عصر العلم، بيروت، دار الكتاب العربي، ط3، 1386هـ/1967م، ص393.

أعرافهم وجنسياتهم ودياناتهم، وهذا من مظاهر الحضارة الإنسانية التي تعين على البناء والعمران البشري.

3-تضمين المناهج التّعليمية في المدارس والمعاهد والجامعات ومقاييس ودروس وورشات عمل فيما يتعلّق بتنمية الوازع الدّيني لكونه مقصداً قرآنيّاً لا تقوم الأمّة الإسلامية إلاّ إذا قوي واستقام، لأنّ ذلك يكفل لنا وجود دعاة مؤهّلين لتقديم الإسلام في صورة مشرقة بعيدة عن الانحرافات الفكرية والشّعائريّة ليكون الإسلام والقرآن قائدين للعالم وحضارته بانيين لعمرانه.

-مصادر ومراجع البحث:

- أمير عبد العزيز، دراسات في الثّقافة الإسلاميّة، مدخل إلى الدّين الإسلامي، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.

-آمنة أحمد حسن، نظريّة التّربية في القرآن وتطبيقاتها في عهد الرّسول-صلّى الله عليه وسلّم-دار المعارف، ط1، 1985.

-الأزهري، أبو منصور، محمّد بن أحمد، معجم تهذيب اللّغة، تحقيق: رياض زكي قاسم، بيروت، دار المعرفة، سنة 2001 ، ط1.

-الإبراشي محمّد عطية، التّربية الإسلامية وفلاسفتها، القاهرة، دار الفكر العربي، ط3، د.ت.

-ابن الأثير، المبارك بن محمّد بن عبد الكريم الجزري، النّهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزّاوي، محمود محمّد الطّناجي، بيروت، المكتبة العلميّة، 1979.

-ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم، جمع وترتيب عبد الرّحيم بن محمّد قاسم بمساعدة ابنه محمّد، دار المعارف، الرّباط، المملكة المغربيّة، د.ت.

- ابن خلدون، عبد الرّحمان، مقدّمة ابن خلدون، دار الرّشاد الحديثة، د.ت.

- ابن قيم الجوزيّة، إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين، تحقيق: عصام الدّين الصّبابطي، القاهرة، دار الحديث، 1425ه/2004م.

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الفوائد، تخريج وحواشي أحمد راتب عرموش، بيروت، دار النفائس، ط7، 1406ه/1986م.

- ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكتاب العربي،1973.

-ابن منظور، محمّد بن مكرم الإفريقي، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط1، د.ت.

- ابن عاشور، محمّد الطّاهر، أصول النّظام الاجتماعي في الإسلام، تحقيق: محمّد الطّاهر الميساوي، الأردن، دار النّفائس، ط1، 2001م.

-ابن العربي، أبو بكر محمّد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق وتخريج: عبد الرّزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1425هـ -2004م، ط1.

-بن نبي مالك ، المسلم في عالم الاقتصاد، بيروت، دار الشروق، 1974، د.ت.

-بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، دمشق، دار الفكر، 2000.

-بن نبي مالك، شروط النّهضة، ترجمة مسقاوي وشاهين، دمشق، دار الفكر، ط2، 1969،

-البوطي محمد سعيد، فقه السيرة النّبويّة، دمشق، دار الفكر، ط11، 1412 هـ/1991م.

-الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد، الصّحاح، تحقيق: إميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتب العلميّة، سنة1999، ط1.

-رشدي، مروان محمد، قاعدة سد الذرائع وأثارها التربوية في تحقيق العبودية وحفظ مقاصد الشريعة الإسلامية، الرياض، مكتبة الرشد، ط1، 1430 هـ/2009م.

-الرّافعي مصطفى، الإسلام ومشكلات العصر، بيروت، دار الكتاب اللّبناني، ط2، 1981.

-الزّمخشري محمود بن عمر، الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، تحقيق عبد الرّزّاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2، 2001.

-الفراهيدي، أبو عبد الرّحمان، الخليل بن أحمد، كتاب العين، بيروت، دار إحياء التّراث العربي، سنة 2001، ط1.

-عمر عبيد حسنة، في النّهوض الحضاري، بيروت، المكتب الإسلامي، ط1، 1414هـ /1996م.

-عويس عبد الحليم، الظّاهرة الحضاريّة في القرآن والسّنّة، مجلّة البحوث الإسلامية الرّئاسة العامة للإدارة والبحوث العلمية والإفتاء والدّعوة والإرشاد، الرياض، العدد21، (1408هـ).

-سابق، السّيّد، عناصر القوّة في الإسلام، بيروت، دار الكتاب العربي، 1398هـ.

- السعدي عبد الرحمان، تيسير الكريم الرحمان، بيروت، دار ابن حزم، ط1424،1هـ/2003م.

-الشّاطبي، إبراهيم بن موسى اللّخمي، الموافقات في أصول الشّريعة، تحقيق: عبد الله درّاز، بيروت، دار المعرفة، ط5، 2001.

-العز بن عبد السّلام، عزّ الدّين عبد العزيز، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، بيروت، دار الكتب العلميّة، د.ت.

-الغزالي محمّد، فقه السيرة، خرّج أحاديثه: محمّد ناصر الدّين الألباني، الجزائر، مكتبة الرّحاب، ط2، سنة1407ه/1987م.

-القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، القاهرة، دار الشعب، ط2، سنة1372ه.

-قطب، سيد، في ظلال القرآن، بيروت، دار الشروق، ط13.

-طبارة عفيف، روح الدين الإسلامي، لبنان، دار العلم للملايين، ط 3، 1995.

-طبارة، عفيف عبد الفتاح، مع الأنبياء في القرآن الكريم،بيروت،دار الملايين، ط 23، 2004.

- القرضاوي يوسف، الإيمان والحياة، بيروت، مؤسّسة الرّسالة، ط16، د.ت، ص186-187.

-القرضاوي، يوسف، دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1995.

-القاضي سعيد إسماعيل، أصول التّربية الإسلامية، بيروت، عالم الكتب، ط1، 2000.

-مصطفى السّباعي، من روائع حضارتنا، القاهرة، دار السّلام، 1426ه/2005م، ط2.

-الهروي، القاسم بن سلاّم، غريب الحديث، تحقيق: محمّد عبد المعيد خان، بيروت، دار الكتاب العربي، سنة1396ه ، ط1.

-يالجن مقداد، دور التّربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية، القاهرة، دار الشّروق، ط1، 1983.